الفصل الأول

الهـوية الثقـافـية

المبحث الأول

الهوية

تمهيد:

لكل شيء في الكون هوية دالة على وجوده ومميزة له عن باقي الموجودات، وهناك هويات متجددة وأخرى ثابتة وتعتبر الهوية العرقية المشكل الأول للهوية الإنسانية ويحملها الإنسان قسراً دون إختيار مسبق منه، وهي غير قابلة للتغيير على المستوى الجيني مع قابلية تغييرها والتخلي عنها في الأوراق الثبوتية التي يختارها الفرد للتعبير عن نفسه كما يمكن التخلي عنها من خلال المظهر الثقافي والذي يعكس الإنتماء لهذه الهوية. وهي الأساس الذي تتشكل على أساسه العديد من الهويات المتداخلة والتي يكتسبها الإنسان منذ الميلاد وقبل أن يتفاعل حتى مع وسطه الإجتماعي وقبل أن يتعرف على ماهيته وماهية الأشياء من حوله وقبل إكتسابه للثقافة، واللغة، والدين بالإضافة إلى هويات أخرى يتم تحديدها لاحقاً كالإنتماء لجماعة دينية أو مهنية أو حزبية أو ثقافية. وبناءاً على ذلك تفسر الهوية على أنها الكيفية التي يُعّرف الناس بها أنفسهم ويوصفون بها تأسيساً على العرق، الإثنية، المواطنة، الإنتماء إلي أرض واحدة وتاريخ وعقيدة مشتركة.

تعريف الهوية(identitiy):

وردت لفظة الهوية بضم الهاء وكسر الواو وشد الياء في اللغة العربية للتعبير عن ماهية الشيء_ ويقال(هو) ضمير الغائب المفرد المذكر، ويقال للمثني(هما) وجمع المذكر(هم) كما يقال للمؤنث المفرد(هي) وللمثني(هما) وللجمع(هن) والهوية لفظ مركب جعل إسماً مُعَّرفاً باللام ومعناه الإتحاد بالذات. وإصطلاحاً عُرفت الهوية بأنها حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة علي صفاته الجوهرية[1]. أي ما يكون به الشئ هو، ولا يمكن معرفة هوية أي إنسان من دون الصفات التي تخصه دون سواه. كما عُرفت الهوية أيضاً بأنها(الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق إشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق)[2]. فالشجرة لا تكون شجرة إلا بأن تكون تلك الشجرة وبأن تحمل أوراقاً وأزهاراً وثماراً، بأن تمر عبر لحظات ضرورتها وتحتفظ داخلها بتلك اللحظات التي

---

[1]/ مجموعة من الباحثين_ المنجد في اللغة والإعلام_ دار المشرق_ بيروت_ ط38_ 2000م_ ص(875).

[2]/ أنظر: الشريف علي بن محمد الجرجاني_ التعريفات_ دار عالم الكتب_ بيروت_ 1998م_ ص(91،193،249).

يستطيع التحليل أن يصل إليها ولكن يجب ألا يعزلها، بالإضافة إلى ذلك فإن الزهرة تتحول إلى ثمرة، والثمرة تنفصل لتنبت شجرة أخري[1]. وهذا التعريف يتضمن معاني فلسفيه تشير في إعتقاد الباحث إلى أن الهوية قد تؤثر وتتأثر فتتفاعل وتتجدد باستمرار لكن يظل هنالك دائماً وأبداً جزأً أصيلاً في ماهية الشيء دال علي كينونة مطلقة وثابتة. وبما أن لكل شيء من الأشياء إنسانا أو ثقافة أو حضارة "الثوابت" و"المتغيرات" فإن هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغير، وتتجلي وتفصح عن ذاتها دون أن تترك مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات علي قيد الحياة، فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره وتتجدد فاعليتها، ويتجلي وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون أن تخلي مكانها لغيرها من البصمات[2].

وفي ذات الإتجاه وعند تتبع معاني اللفظ في الأدبيات المعاصرة نجد أن كلمة(الهوية) تستعمل لأداء معني كلمة(identite_identitiy) في اللغتين(الإنجليزية والفرنسية) علي التوالي والتي تعبر عن معني المطابقة: "مطابقة الشئ لنفسه أو مطابقته لمثيله" ولذلك فإننا إذا إعتمدنا علي المفهوم اللغوي لكلمة(هوية) أو إعتمدنا علي إستعمالاتها في معاجم العلوم الإنسانية المختلفة فإن المعني العام للهوية لا يتغير[3]. وهذا ما أكده علماء المنطق في شرحهم لقانون الهوية أو الذاتية والذي يعتبر أحد قوانين المنطق الثلاث التي وضعها الفيلسوف اليوناني أرسطو وينص على: أن "الشيء هو نفسه" وهو يعبر عن أبسط الأحكام لأن أبسط الأحكام هو الحكم بأن الشيء هو نفسه مثل أن نقول الإنسان هو الإنسان والمرأة هي المرأة، ورمز هذا القانون(أ) يساوي(أ) ويرى أرسطو أن هذا القانون هو أساس التفكير المنطقي لأنه يشير إلى ضرورة التقيد بذاتية مدلول اللفظ الذي نستخدمه فلا نخلط بين الشيء وما عداه، ولا نضيف للشيء ما ليس فيه وعلى ذلك فهو يؤكد وجود علاقة مساواة بين طرفين متطابقين، مما من شأنه أن يضبط التفكير ومخالفة هذا القانون يوقعنا في التناقض، ويؤدى إلى فساد الإستدلال وأن هذا القانون يجب أن يعمل ليس في عملية الإستدلال أو البرهان فقط، لكن في حياتنا اليومية فلكي نفهم بعضنا البعض يجب أن نتحدث بلغة واحدة لا يحتمل أي لفظ من

---

[1]/ هنري أوفيفر_ المنطق الجدلي_ ت: إبراهيم فتحي_ دار الفكر المعاصر_ لبنان_ 1978م_ ص(26).

[2]/ محمد عمارة_ مخاطر العولمة علي الهوية سلسلة "التنوير الإسلامي"_ دار نهضة مصر_ 1999م_ ص(6).

[3]/ خليل نوري مسيهر العاني_ الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية_ ديوان الوقف السني_ العراق_ 2009م_ ص(45).

ألفاظها أكثر من معنى[1]. ومن ناحية أخرى عُرفت الهوّية أيضاً على أنها مؤشر إنتماء الإنسان إلى وطن ومجتمع وهي وسيلة تمايز يُدرك من خلالها بأنه يختلف عن الآخرين من حيث الإسم والجنس والتركيب الجيني والبناء الفكري والثقافي[2]. وبناءاً على ماسبق ذكره وإستناداً على ما ورد في المعاجم والدراسات المتخصصة التي بحثت مسألة الهوية نجد أن الهوية يمكن معرفتها والتعبير عنها من خلال الآتي:

1. **المكون الاجتماعي:**

من حيث الطبقة والمكانة والوظيفة أو عناصر المكون البيولوجي المكون من العرق أو اللون أو الدم أو الجنس(النوع). وبذلك يلاحظ أنه يمكن الربط جدليًا بين الهوية ومعارف العلوم التطبيقية والمختبرية، من حيث تحديد العرق الدموي معمليًا وتحديد العرق البنيوي الجسماني ولون البشرة فيزيائيًا. كما يمكن التعبير عن الهوية عن طريق الإنتماء والتبعية والعضوية الإثنية أو القبيلة أو العائلة أو الأسرة أو المولد(بالميلاد) بالإنحدار الدموي بحق الدم الأسري والعائلي.

2. **المكون الثقافي:**

من حيث الدين أو اللغة أو العادات والتقاليد والعرف أو القيم الإجتماعية المشتركة أو الملبس أو وسائل الإنتاج أو طرق الأكل والشرب أو نظام أسلوب الإدارة والتنظيم الهيكلي للقوة والسلطة والقانون المنظم، والقصص والأساطير والخرافات والمعتقدات المعنوية والتهيؤات الخيالية والرموز وكما يندرج فيها وحدة المصالح والمصير والتاريخ المشترك.

3. **المكون السياسي:**

من حيث الدولة الوطنية أو القومية ونظام الحكم وشكل الدولة، أو المواطنة والجنسية أو البناء الدستوري والقانوني فيها أو الأيدولوجيا الموجهة للبناء السياسي الرئيسي والفرعي الحكومة والتنظيمات السياسية كالأحزاب وتنظيمات المجتمع المدني والأهلي[3]**.** ونستخلص من ذلك أن هوية أي أمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميز حضارة هذه

---

[1]/ ويكيبيديا_ الموسوعة الحرة_ قوانين الفكر الأرسطية_ 31 أكتوبر2013م.

[2]/ فؤاد بدوي بطرس_ الهوية وثقافة السلام _ الطبعة الإلكترونية_ 2008م_ ص(20).

[3]/ الطيب عبد الجليل حسين_ الهوية والجنسية_ رسالة ماجستير غير منشورة_ جامعة الزعيم الأزهري_ الخرطوم_ 2005م_ ص(22،23).

الأمة عن غيرها من الأمم والحضارات غير أن حضارة الأمة لا تظهر مكتملة مرة واحدة، فهي تأخذ في تشكيل نفسها علي عدة مراحل، حسب ظروفها الفكرية، والبشرية، والبيئية التي تكيف مناخها الإجتماعي ومن تلك المراحل تظهر لها ملامح جديدة لم تكن ظاهره عليها من قبل، وإن كانت نابعة_أصلاً_ من ذاتها وفقاً لقواعد نموها، مثلها في ذلك مثل الكائن الحي، فالإنسان في طفولته يتميز بمقومات يتولد عنها صباه ثم رجولته وهو في كل هذه الأطوار يذوب بكيانه في المرحلة التي تليها، وهكذا المجتمع السوداني المتكون من قبائل وشعوب متعددة، تولدت بالمصاهرة والإحتكاك[1]. وإن الهوية السودانية مبنية علي أساس مجموعة من المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها البنية الحضارية للمجتمع السوداني وهي محصلة الإنجاز الحضاري الذي حققته أجيال الحضارة السودانية عبر الحقب التاريخية المتعاقبة والتي شهدت قيام الحضارات القديمة بكل نظمها الإجتماعية والسياسية والتي بتطورها تشكلت الدولة الحديثة[2].

وقد تشكلت الدولة السودانية الحديثة من ثلاثة كيانات، لها شخصيتها وتاريخها وتكوينها الإقتصادي والإجتماعي والثقافي تمثلت في سلطنة الفونج وسلطنة الفور بينما كانت قبائل جنوب السودان في شبه إستقلال ذاتي حتى عام 1839م. إلى أن تم دمج هذه الكيانات الثلاث في كيان واحد، أعلن أسمه السودان المصري في العام 1874م. وبذلك برزت الدولة السودانية قبل بروز الأمة أو الهوية الموحدة، وهذا الدمج ظل شكلياً نسبة لعدم إستمرارية التجربة وإنقطاعها بالحروب في فترة المهدية ثم إنفصال دارفور حتى عام 1916م، ثم قوانين المناطق المقفولة حتى1948م، ثم إنعدام البنية الإتصالية والتواصلية واللغة المشتركة[3] وعلى إثر ذلك تشكلت جمهورية السودان بحدودها الجغرافية والسياسية الحالية، وهي تحمل في تاريخها إرث السلطنات والممالك القديمة ومفرداتها الثقافية التي كانت قائمة داخل هذه الحدود منذ أزمان بعيدة.

---

[1]/ عبد الله عبد الماجد إبراهيم_ الغرابة_ دار الحاوي_ السعودية_ 1998م_ ص(17).

[2]/ فضل الله أحمد عبد الله_ الدراما والهوية في شعر محمد عبد الحي_ قاف لخدمات الطباعة_ الخرطوم_ 2008م_ ص(44).

[3]/ حسن مكي محمد أحمد_ الواقع الثقافي في السودان_ مجلة دراسات أفريقية_ جامعة أفريقيا العالمية_ (ب.ت)_ ص(10).

المبحث الثاني

الثقافة

تمهيد:

قال تعالي:(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا)[1] وهذا الإختلاف يستند إليه الباحث كمدخل لدراسة الثقافة كونها_ تمثل إجمالاً حصيلة ما تعلمه الفرد حسب بيئته ومجتمعه[2]. فتنوع البيئة الإجتماعي أدي لإنتاج ثقافات متباينة تَّم إكتسابها بحسب طبيعة الحياة ومتطلباتها ووفق تجارب مختلفة وعليه(تُفهم الثقافة الخاصة بأمة ما علي أنها علمها الذي تتوارثه أجيالها بشتى الطرق لتمارس به شؤون حياتها)[3]. وبناء على ذلك تتحرك الثقافة وفق حركة الحياة داخل الشعوب ويتفاعل مكونها المتوارث مع المستحدث في محاولة للإستمرار. وهذا أسس بدوره لأن تكون هناك مفردات ثقافية عامة يشترك فيها كل البشر وأخرى خاصة تميز الجماعات البشرية عن بعضها حتى على مستوى البلد الواحد في إطار من الخصوصية الثقافية عُرف إصطلاحاً بمسمى الهوية الثقافية وهو المحور الذي يدور فيه هذا البحث. وفي هذه الجزئية منه نتناول مفهوم الثقافة إستكمالاً لموضوع الهوية في المبحث السابق وذلك للإلمام بمدلولاتهم الأساسية ومن ثم مقاربتهم لدعم عملية التشابه والإختلاف والذي تحدده الهوية الثقافية من خلال الأزياء.

أولاً: تأصيل مفهوم الثقافة(culture) في دلالاته الأوربية:

تعود جذور كلمة(culture) إلى اللفظ اللاتيني(colere) الذي يعني حرث الأرض وزراعتها وقد ظلت اللفظة مقترنة بهذا المعنى طوال العصرين اليوناني والروماني حيث إستخدمها(شيشرون) مجازاً بالدلالات نفسها فقد أطلق على الفلسفة(Mentis Culture) أي زراعة العقل و تنميته، وقد ظلت الكلمة هكذا حتى القرون الوسطى حيث أطلقت في فرنسا على الطقوس الدينية(cultes) وفي عصر النهضة إقتصر مفهوم(culture) علي مدلوله الفني والأدبي، فتمثل في الدراسات التي تتناول التربية والإبداع[4]. وأول من إستعمل لفظ(culture) هم الألمان وقالوا أنها هي الحضارة

---

[1]/ سورة الإسراء_ الآية(84).

[2]/ عزيزة الطائى_ ثقافة الطفل بين الهوية والعولمة_ مؤسسة الدوسري_ البحرين_ 2011م_ ص(18).

[3]/ حسين مؤنس_ الحضارة "دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها"_ مرجع سابق_ ص(323).

[4]/ نصر محمد عارف_ "الحضارة، الثقافة، المدنية"_ المعهد العالمي للفكر الإسلامي_ فيريجنيا_ 1994م_ ص(19).

وأستعملوها في هذا المعنى زمناً طويلاً وبإنتقال مفهوم(culture) إلى(kulture) الألماني تحدد معنى الثقافة في الإشارة إلى التقدم الفكري للفرد والجماعة والإنسانية بصفة عامة حيث جاء فلاسفة وإجتماعيون ألمان كثيرون من أمثال(نيتشه) و(فلهام دلتاي) و(هيجل) و(فلهلم فندلباند) و(جورج زيمل) فبينوا القيم التي تتضمنها الثقافة والعلاقة بين ماهو موضوعي وشخصي في التحول الثقافي أما معاصروهم من المفكرين الإنجليز فقد نظروا في القيمة العملية للثقافة فذهب(ماثيو أرنولد) في كتابه المسمي(الثقافة والفوضى) سنة1869م إلى القول أن الثقافة هي محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني مما يؤدي إلى رقي البشرية[1]. وظل معنى الغرس والزراعة والإستصلاح قليل الشيوع حتى نهاية القرن السابع عشر ولم يتم الإعتراف به أكاديمياً كما لم يظهر في غالبية معاجم تلك الفترة. ولم تبدأ كلمة "ثقافة" بفرض نفسها مجازياً إلاَّ في القرن الثامن عشر. ودخلت بمعناها هذا معجم الأكاديمية الفرنسية في العام 1718م وألحق بها المضاف وصار يقال: "ثقافة الفنون" و"ثقافة الأدب" و"ثقافة العلوم" كما لو كان تحديد الشيء المُهَذّب ضرورياً[2]. وأكتسب مفهوم الثقافة صفة تصنيفية دلالية مع تشعب العلوم والفنون وكثرتها وأصبح المفهوم يُعّرف بحسب الحقل الذي تصفه وتشير إليه الثقافة ومن بين هذه التعريفات نذكر ما يلي:

عرف الفيلسوف الألماني(هيغل) الثقافة بأنها مفهوم يحمل معنى واسعاً يمتد ليشمل كل ما ينتجه الإنسان إبتداءً من التقنية حتى الشعر بما في ذلك السياسة والدين والفلسفة[3] وعرفها المستشرق الفرنسي(هنري لاوست) بأنها الأفكار والعادات والموروثات التي يتكون منها مبدأ خلقي لأمة ما ويؤمن أصحابها بصحتها وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها[4] وكذلك عرفها عالم الإجتماع(روبرت بيرستد) بأنها ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في مجتمع[5]. وعرف الإنثربولوجي(كلايد كلكهون) أيضا الثقافة بأنها: مجموعة طرائق الحياة لدي شعب معين أي الميراث الإجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من

---

[1]/ حسين مؤنس_ الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها_ مرجع سابق_ ص(324،326).

[2]/ دينس كوش_ مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية_ مركز دراسات الوحدة العربية للترجمة_ لبنان_ 2007م_ ص(17،18).

[3]/ هيام الملقى_ ثقافتنا في مواجهة الإنفتاح الحضاري_ دار الشواف_ السعودية_ 1995م_ ص(20).

[4]/ أنور الجندي_ أصول الثقافة العربية_ دار المعرفة_ القاهرة_ 1990م_ ص(22).

[5]/ مجموعة من الكتاب_ نظرية الثقافة_ ت:علي سيد الصاوي_ عالم المعرفة_ الكويت_ 2002م_ ص(9،10).

مجموعته التي يعيش فيها، أو هي الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه وهي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو هي طريقته في التفكير والشعور والمعتقد، إنها معلومات الجماعة البشرية مخزونه في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في المواد والأدوات[1]. وفي ذات الإتجاه عَّرف عالم الإنثربولوجيا البريطاني(إدوارد بارنات تايلور) الثقافة في أولي صفحه من كتابه المُسمي بالثقافة البدائية قائلاً: أن الثقافة أو الحضارة بمعناها الإثنوغرافي الواسع هي ذلك الكل المركب الذي يضم المعرفة والإعتقاد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع[2].

يتفق الباحث مع كثير من الباحثين الذين وصفوا تعريف(تايلور) بالبساطة والدقة والشمولية ويعتقد أن تايلور لم يجد أن هنالك ثمة ضرورة للتفريق بين لفظتي ثقافة وحضارة بإعتبار العناصر المشتركة بينهما والتي هي مجموع الأنظمة المادية والروحية التي إبتكرها الإنسان وشكلت طريقته الخاصة في الحياة. وتعريف(تايلور) يعتبر بمثابة دعوة لتأمل ومقارنة اللفظيين ثقافة وحضارة وضرورة صياغة معانيهم بعبارات دقيقة ومحددة، وذلك لأن المعني الإجرائي لأي مصطلح يتطلب الوضوح والدقة وأن لفظ حضارة يشير إلى تكوين المدن ويدل أيضاً على مرحلة متقدمة من الثقافة تطورت وتكاملت فيها النواحي المادية والمعنوية بناءاً على تطور الفكر الإنساني. و(تايلور) يري أن المجتمعات الأوربية نمت عبر سلسلة من المراحل الهمجية ثم البربرية ثم الحضارة وذكر بأن الحضارة تسير دائماً في خط تصاعدي من الحالة الأدنى إلي الحالة الأعلى أي من البداوة إلي الحضارة، وإن العقل البشري يعمل بشكل واحد في أي مكان إذا كانت الشروط المتوفرة متشابهة. وفي تعريف تايلور للثقافة نقاط مهمة يلزم الوقوف عندها وهي أن قضايا الثقافة هي القضايا ذات البعد الإنساني غير المادي عقيدة، وقيماً، وفنوناً، ونظماً، وأعرافاً. وإن هذه القضايا تتمثل في صورة بناء متكامل وليست جزئيات منفصلة عن بعضها. إنها ليست تميزاً فردياً لشخص، وإنما هي إجتماعية، فالشخص يعيشها في ظل مجتمع أو أمة تعيشها كذلك. إنها ليست معارف نظرية؛ فلسفة أو فكراً مجرداً، ولكنها حياة إجتماعية، وواقع فكري وسلوكي يتحرك به الناس. إنها بمجموعها

---

[1]/ كلايد كلكهون_ الإنسان في المرآة_ ت:شاكر مصطفي_ منشورات المكتبة الأهلية_ بغداد_ 1964م_ ص(24).

[2]/ أنظر: Taylor_ E_ B_ Primitive Culture_ NewYork_ Brentano's (1924 p1)

مميزة لأهل ذلك المجتمع، أو لتلك الأمة عن مجتمعات وأمم أخري، وهذا هو الواقع فإن التمايز بين الأمم إنما هو بهذه القضايا: العقائد، والقيم، والنظم، والأعراف، أي: بالثقافة[1]. ويُلاحظ من التعريفات آنفة الذكر أن مفهوم الثقافة حمل في طياته العديد من الرموز والأفكار والمعاني ولهذا كان من الصعوبة إيجاد تعريف مبسط ودقيق وجامع لكل المعاني التي تشير إليها مفردة الثقافة. ونستخلص من كل ذلك أن الثقافة في الفكر الغربي صيغت معانيها عبر ثلاثة مستويات. المستوى الأول الدين والحكمة والفلسفة والمعتقد أما الثاني فهو الزراعة والإستصلاح وتنمية المهارات الإنسانية بالعلم والمعرفة. والثالث هو مستوى المعارف المكتسبة العادات والتقاليد الأعراف، أنماط العيش، الفنون. وأن مفردة ثقافة في الفكر الأوربي شهدت تطوراً سريعاً وأتسعت مجالاتها بصورة لا يمكن ضبط معانيها أو حصرها في هذا البحث، وأن التعريفات أنفة الذكر بإستثناء_ تعريف تايلور ذكرت في سياقات متباينة لكن يكمل بعضها البعض من حيث المضمون العام للمفهوم. ومن خلال مجمل تلك التعريفات لمفهوم(culture) يمكن أن نتبين المحددات العامة والدلالية لمفهوم(culture) وذلك لأنه لا يمكن أن ندِّعي الإلمام بجميع التعريفات التي طرحها الفكر الغربي. فقد أحصي(كوبير) و(كلكهون) سنة 1952م ما يزيد عن مائة وأربعة وستون تعريفاً. ونسبة لأهمية الثقافة تفرَّع من علم الإناسة فرعٌ علمي خاص هو(الأثنولوجيا) يهتم بدراسة الثقافات والمقارنة بينها.

ثانياً: ترجمة مفهوم(culture)إلي ثقافة:

في عام1927م ترجم المفكر العربي(سلامة موسى)(culture) إلى ثقافة وذلك تزامناً مع بدايات تفاعل الفكر العربي مع الفكر الأوربي، ويقول سلامة كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكها بنفسه، فإني إنتحلتها من إبن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ(culture) الشائعة في الأدب الأوربي[2]. وهذا يدل علي أن المعنى كان موجود ذهنياً عند العرب قبل أن يتم تحديده لفظياً في اللغة العربية بكلمة الثقافة، والتي يرجع

---

[1]/ عبد الرحمن بن زيد الزنيدي_ المثقف العربي بين العصرانية والإسلامية_ داركنوز إشبيليا للنشر والتوزيع_ الرياض_ 2009م_ ص(14،13).

[2]/ سلامة موسى_ الثقافة والحضارة_ مجلة الهلال_ منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب_1927م_ ص(171).

إشتقاقها إلى الفعل الثلاثي المتعدي ثقف بكسر القاف والفعل اللازم ثقف بضم القاف وهو أصلها ومصدرها، وهذا المصدر أنتج العديد من الإشتقاقات والتي ورد بعض منها في القران الكريم بمعنى التمكن والظفر والغلبة وأمثلة ذلك قوله عز وجل:

- (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ)[1]
- (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[2]

وبالرجوع إلى المعاجم العربية لبيان الأصل الدلالي لكلمة ثقافة نجد العديد من الكلمات المماثلة كأن يقال: ثقافة وثقوفة الكلام: حذقه وفهمه بسرعة، "ثاقفه فثقفه" أي غالبه فغلبه في الحذق. فالثقاف من النساء، الفطنة والثقيف، الحاذق جداً "ثقف الرمح" قومه وسواه، الثقاف آلة تثقف بها الرماح[3]. ومعني مماثل آخر نجده في معلقة الشاعر الجاهلي عنترة العبسي وفي قوله:

وَمُدَجَّجٍ كَرِه الكُماةُ نِزالهُ لا مُمِعنٍ هَرباً ولا مُستسلِمِ

جَادَت لهُ كَفِّي بعاجِلِ طَعَنةٍ بَمُثقفٍ صَدق الكُعُوبِ مُقَوّمِ

والثقاف هو وسيلة التثقيف وقد يكون مادياً كعود الثقاف الذي تسوي به الرماح، وقد يكون معنوياً كما في قول السيدة عائشة(رضي الله عنها) عن أبيها: "وأقام أود المسلمين بثقافة". ومن ذلك نجد أن الدلالة اللغوية للفظ ثقافة ترتكز على معنيين: المعنى الأول هو تفوق الفكر لدي الإنسان هبة، أو كسباً، وإصابة علم ما يسمعه علي إستواء؛ فالثقيف أو الثقف_ وفق تسمية إبن منظور هو المتفوق الضابط للمعرفة والثقافة هي ما به حصل هذا التفوق. أما المعنى الثاني فهو تقويم الأشياء لتستوي معتدلة، سواء كانت مادية، أو معنوية كما سبق. فالمعني الأول ذاتي لدى الإنسان، والثاني يمارسه مالك الثقافة مع الغير ليثقفهم به، أي ليقومهم لا ليعرفهم، أو يعلمهم فحسب[4]. وفي إطار الحضارة العربية والإسلامية أيضاً عرف المفكر مالك بن نبي الثقافة بأنها: مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الإجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط

---

[1]/ سورة البقرة الآية(191).

[2]/ سورة الأنفال الآية(57).

[3]/ مجموعة من الباحثين_ المنجد في اللغة والإعلام_ دار المشرق_ بيروت_ 2000م_ ص(71).

[4]/ عبد الرحمن بن زيد الزنيدي_ المثقف العربي بين العصرانية والإسلامية_ مرجع سابق_ ص(11).

سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه[1]. وفي هذا الوسط الإجتماعي تتكون الهوية الشخصية والإجتماعية والثقافية للإنسان وتنمو معه في كل مراحله العمرية وتصبح الثقافة لاحقاً الإطار المعرفي والمرجعي لمدركات الفرد الحسية والعقلية.

ولهذا نجد أن الثقافة الإسلامية تثقف الفرد وفق أسس مستقاة من الشريعة الإسلامية فتجعله متوافقاً مع ذاته وتعده نفسياً وذهنياً وإجتماعياً، ليكون عضواً منسجماً مع المجتمع الذي ينتمي إليه أو الذي يعيش فيه، حيث تتشكل هويته ونسقه القيمي ومنظومته الجمالية والأخلاقية، وأنماطه السلوكية في إطار محدد مسبقاً وذلك لأن الثقافة من شأنها أن تجعل الفرد متوافقاً ومتقارباً مع ذاته ومع مجتمعه وقد تحدث العكس.

وبناءاً على ذلك نجد أن معنى تثقيف الإنسان وتعليمه يأتي مطابقاً للمعني الذي جاء في الحديث الشريف "يولد المولود علي الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" أي أن كلمة ثقافة كما أنها تتضمن معني تثقيف الإنسان بالخبرة النافعة التي تتفق مع أصولنا التشريعية، فإنها تتضمن أيضاً تثقيف الإنسان بالمعرفة والخبرة الضارة التي تخالف العقيدة ومنهج الشريعة[2]. وخطورة ذلك تتمثل في إتباع البعض لها من الذين لم يتشكل لديهم وازع ديني أو أخلاقي رادع وعلي سبيل المثال(نجد السودانيون فيهم من لا يأكل الخنزير، لأن مرجعيته الدينية تمنعه من ذلك ومنهم من يأكله، لأن مرجعياته الروحية لا تحول بينه وبين ذلك، ينطبق هذا أيضاً على تعاطي الخمر فمن السودانيين من تبيح له ثقافته وتقاليده وسبل كسب عيشه تناول الخمور، وبالطبع كثير من أهل البلاد يمتنع عن ذلك لأسباب دينية، ولعله من نافلة القول أن هناك من يشربها، وإن كان من المسلمين، وقد عد نفسه من الآثمين)[3]. وحين سأل أحدهم الشيخ القرضاوي هل يعتبر الأكل علي سبيل المثال ثقافة؟ أجابه قائلاً: إذا كان المقصود بالأكل البلع والمضغ والهضم، فليس من الثقافة في شيء، فهذا أمر يشترك فيه الإنسان والحيوان، بل الحيوان متفوق فيه علي الإنسان. ولكن إذا قيل للإنسان"سم الله" وكل بيمينك وكل مما يليك وكل من الحلال الطيب، ولا تأكل خبيثاً مما حرم الله

---

[1]/ مالك بن نبي_ مشكلة الثقافة_ دار الفكر_ سوريا_ 2000م_ ص(74).

[2]/ هيام الملقى_ ثقافتنا في مواجهة الإنفتاح الحضاري_ مرجع سابق_ ص(28).

[3]/ حسن مكي محمد أحمد_ الواقع الثقافي في السودان_ مرجع سابق_ ص(1).

عليك، وكل في إناء مباح لا ذهب ولا فضة، وكل عندما تجوع، وإذا أكلت فلا تسرف. وإذا فرغت من طعامك فقل: الحمد لله .. إلي آخر هذه الآداب، فهنا يصبح الأكل ثقافة. وليس مجرد عملية حيوانية وكل الأمور المادية تنقلب إلي ثقافة إذا إرتبطت بقيمة وهدف نبيل، ومعايير وأدآب ترقى بها وتنقلها من المعنى الحيواني إلى الأفق الإنساني[1].

والثقافة في النسق الفكري الإسلامي هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها. وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع بالأشياء، فإن الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار والعقائد والقيم والآداب والفنون وكلاهما(الثقافة والمدنية) عمران للنفس وعمران للواقع، ولذلك مثلاّ شقي الحضارة التي هي(العمران)[2]. وأن كل شيء في المجتمع يتأثر بالثقافة وأي تغيير في هذه المنظومة الثقافية مهما إختلفت كميته وتفاوتت نوعيته، يتأثر به المجتمع سلباً أو إيجاباً. وذلك لأن الثقافة عموماً تمثل المفهوم الذي يحدد السلوك الإنساني والذي يجعل الإنسان دون غيره كائناً ثقافياً. وأن مصطلح(Culture) والذي ترجم إلي ثقافة في اللغة العربية لم ينحصر إستخدامه في الإشارة إلي العلم والجدارة في التحصيل فقط بل شمل تقويم النفس وتهذيبها فالكلمة تعني تنقية النفس البشرية وتقويم إعوجاجها.

وإن كل هذه المعاني تبلورت بصورة مثلى مع مجيء الإسلام وأكتسبت كلمة ثقافة مع الزمن، وبالتحديد منذ مطلع القرن العشرين، معنى إصطلاحياً أريد به أن يكون المقابل للمعنى الذي حملته منذ منتصف القرن الثامن عشر كلمة(Culture) الإنكليزية والفرنسية، هذه الكلمة المستمدة من كلمة(Cultura) اللاتينية التي شاعت في عصر النهضة في أوروبا[3] "والتي ورد معناها سابقاً".

وفي السودان أيضاً نجد أن مسألة الثقافة السودانية شغلت فكر العديد من الباحثين والعلماء ودار حول نشأتها الكثير من الجدل وذلك لتحديد هويتها ومعرفة أصولها التكوينية، وقد عرف عبد الله آدم خاطر الثقافة بأنها:(كل الموروث قولاً وسلوكاً مع إمكانية المراجعة لتأخذ الأمة ما يناسبها

---

[1]/ يوسف القرضاوي_ ثقافتنا بين الإنفتاح والإنغلاق_ دار الشروق_ القاهرة_ 2000م_ ص(14، 15).

[2]/ محمد عمارة_ مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية سلسلة في التنوير الإسلامي_ دار نهضة مصر للطباعة والنشر_ 1999م_ ص(5).

[3]/ شحادة الخوري_ أوراق ثقافية_ منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب_ 2012م_ ص(42).

للعصر وتطوره)[1]. وهذا التعريف من أوضح التعريفات التي ذكرت في ذات الإتجاه وأشملها على الإطلاق بيد أنه لم يحظ بالإنتشار كتعريف(تايلور) الذي ذكرناه سابقاً. لم يختلف أدباء وعلماء السودان في تحديد المفهوم العام لمصطلح ثقافة ولكن تعددت الآراء في الثقافة المعبرة عن الهوية السودانية وبصدد ذلك ظهرت العديد من الآراء الفكرية نوردها كالآتي:

المدرسة العنصرية:

تركز هذه المدرسة على العنصر كمحور مهم في التكوين الثقافي، يضاف إليه مكونات تاريخية وعوامل إجتماعية. وتهتم بالعنصر في تحديد طبيعة المجموعات السكانية في السودان، وما ينطبق عليها من أنماط سلوكية. وينقسم أصحاب هذا الرأي في أشد تطرفه إلى ثلاث فئات: الفئة الأولى ترى أن العنصر العربي يشكل الأغلبية العددية وله الغلبة الحضارية لسمو ثقافته وبالتالي يرى أحقيته في الهيمنة والسيطرة. يرجع أنصار هذه الفئة كل عناصر الثقافة السودانية إلى الأصل العربي(العروبة). أما الفئة الثانية فجاءت مناهضة للفئة الأولى وتسعى لتأكيد أن السودان ينتمي إلى العنصر الأفريقي الزنجي(الزنوجة). بينما نجد الفئة الثالثة تسعى للتوفيق بين الرأيين السابقين بقولها أن السودان خليط من العنصرين العربي والزنجي. تَّم ذلك عبر التزاوج وتداخل اللغة، وتمازج السمات الجسدية والثقافية في واقع الحياة اليومية. وجد هذا الإتجاه رواجاً، وصار من أنشط الحركات الفكرية في السودان[2]. وتعد سلطنة الفونج إحدى الحلقات المهمة في التسلسل الحضاري السوداني وبصورة أشمل هي مرحلة إحتوت كل إبداعات نواتج الحضارات السابقة لتنبعث مرحلة حضارية لا تزال معطياتها الثقافية سارية حتى الآن[3] فقد شملت الثقافة العربية والإسلامية والأفريقية والعديد من السمات الحضارية المستلهمة والتي تَّم إنتخابها وتطويرها عبر تاريخها الممتد. وإذا نظرنا إلي الحضارة السودانية في مفرداتها الحضارية نجد أن كل جزء من السودان قدم جزيئات من هذه المفردات فنجد مثلاً أن "العنقريب" سرير خشبي منسوج من الحبال أو الجلد والذي لعب دوراً هاماً في الحضارة السودانية قدم من شرق السودان قبائل البجة كما أن الطبال الكبير

---

[1]/ علي عثمان محمد صالح_ منهجية دراسات الثقافات_ مجلة محاور_ مركز محمد عمر بشير_ جامعة أم درمان الأهلية_ فبراير1999م_ ص(36).

[2]/ أبوبكر حسن مسعود_ اللغة العربية والهوية الثقافية_ جامعة القضارف_ ورقة بحثية_ (ب.ت)_ ص(20،21).

[3]/ صلاح عمر الصادق_ خلفية تاريخية عن تطور اللامركزية في السودان_ مجلة جامعة الخرطوم_ 1944م_ ص(31).

والصغير"الدلوكة والدربكة" والتي تظهر علي الآثار السودانية قدمت من جنوب السودان، أما صناعة الحديد فقد قدمتها مروي إلي جنوب السودان ومنها إلي أفريقيا وقد أكتشفت أفران الحديد في نينا كورا جنوب واو وأيضا في مريدي علي ضفة نهر مريدي[1].

ومن جانب آخر فليس هناك مرحلة معينة من تاريخ أي مجتمع إنساني لا وجود فيها للثقافة فالثقافة الإنسانية إستمرت في العصور المختلفة كثقافة ولكنها إختلفت على مر الأجيال في "مكوناتها" وفي "إنتظام عناصرها"، حيث سادت ثقافات تكتنفها الأوهام والخرافات وأخرى، تميزها الأساطير وثالثة تسود فيها الحياة الرعوية أو الزراعية، ورابعة تزدهر فيها الآداب والفنون والفلسفات[2]. والفرد في المجتمع قد يتفق مع بعض الأفراد في بعض الأشياء، وقد لا يتفق في أشياء أخرى ومظاهر الإختلاف والإتفاق بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تعود إلى الأسلوب الذي يعتمده الناس في حياتهم والذي يعتمد بشكل أساسي على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، فضلاً عن عوامل أخرى تتعلق بالبيئة الطبيعية المحيطة[3]. وقد قسمت الثقافة من حيث التصنيف إلى قسمين مادية وأخرى غير مادية.

أولاً: الثقافة الإثنوغرافية المادية(التراثية) (Ethnographical Material Culture):

وهي نتاج العمل الإنساني في أي مجتمع من مباني ومنشئات وكل الأشياء الملموسة التي يستخدمها الفرد. وبناء على ذلك فهي تشمل الحرف والصناعات الشعبية مثل(الفخار، الحصير). وتشمل أيضاً أدوات العمل الزراعي والصناعي والصيد بنوعيه(محراث، ساقية) كما تشمل الأدوات والمعدات المنزلية(طحن حبوب، أفران، مواقد) ومواد صنع الطعام. بالإضافة إلى ذلك تشمل أيضاً العمارة الشعبية والأزياء وطرق وأساليب التعامل مع تلك الأشياء.

ثانياً: الثقافة الإثنوغرافية غير المادية(Non Ethnographic Material Culture):

وهي القيم والأفكار والإتجاهات والمعتقدات التي يؤمن بها الناس وتضم اللغة ولهجاتها المنبثقة منها، والمعتقدات والمعارف الشعبية(الزار، الذكر، الطب الشعبي)، بالإضافة إلى القيم

---

[1]/ صلاح عمر الصادق_ دراسات سودانية في الآثار والفلكلور والتاريخ_ دار عزة_ الخرطوم_ 2006م_ ص(267).

[2]/ هادي نعمان الهيتي_ ثقافة الأطفال_ سلسلة عالم المعرفة_ الكويت_ 1988م_ ص(28).

[3]/ عبد الغني عماد_ سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة_ مركز دراسات الوحدة العربية_ لبنان_ 2006م_ ص(28).

المعايير، العادات التقاليد، الأعراف، والقوانين. وتشمل أيضاً الأدب الشعبي(القصة، الحجوة الأساطير، الخرافات، الملاحم والشعر)، كما تضم أيضاً الفنون الشعبية(الغناء، الرقص)[1]. ونجد أن الثقافة بشقيها المادي واللامادي توجد في المجتمع متفاعلة ومتداخلة مع بعضها البعض وكل العناصر فيها تستند على الفكر والروح الخاصة بالمجتمع ولهذا نجد المظاهر المادية قابلة للتغيير بخلاف اللامادية التي تتسم بالبقاء. ودراسة الثقافة بصورة شاملة تلزم النظر إلى هذه الجزئيات وتحليلها مجتمعة. وكلاً من الثقافة والمجتمع يعتمد إدراك معناه علي فهم معنى الآخر وإدراكه. وعناصر الثقافة هي التي تكون الثقافة وهي أيضاً التي تحدد لكل شعب ثقافته العامة والتي يشترك فيها مع غيره من الشعوب، وتحدد أيضا ثقافته الخاصة التي تحفظ تاريخه وتميز هويته وأسلوبه في الحياة وتنقسم هذه العناصر إلى ثلاثة أقسام وهي:

1. **العموميات(universals):**

وهي مجموع العادات والأساليب السائدة عند معظم أفراد المجتمع كأنواع الطعام المحلية واللباس الوطني، واللغة وطريقة مخاطبة الأفراد وتحيتهم لبعض، والمعتقدات والممارسات الدينية وأحكام السلوك السوي، والتأدّب العام والأنظمة السياسية والإقتصادية والقيمية العامة المتبعة.

2. **الخصوصيات(Specialties):**

وهي العادات والقيم والأنظمة والأساليب التي يختص بها حزب أو فئة أو طبقة محددة في المجتمع وتعمل على ممارستها بشكل واضح دون غيرها من الطبقات الإجتماعية الأخرى. كالعادات والتقاليد المهنية وأساليب التعامل الإجتماعي والقيم الخاصة للأطباء، وأدوات وطرائق العيش التي تميز حياة طبقة إجتماعية معينة مثل الأثرياء، والمعتقدات السياسية أو الدينية أو الإجتماعية أو الإقتصادية الخاصة بفئة أو مجموعة من الناس.

3. **البدائل/المتغيرات(Alternatives):**

وهي العناصر الثقافية التي لا تنتمي إلى الخصوصيات أو العموميات، ويتبناها الأفراد نتيجة تعاملهم مع ثقافات أخرى أو نتيجة لإبتكارهم بدائل خاصة بهم لأخرى مماثلة في ثقافتهم المحلية مثل: أنواع الطعام الجديدة على عامة الناس، واللباس المختلف عن قرينه الوطني العام، والموسيقى

[1]/ أنظر: صلاح عمر الصادق_ دراسات سودانية في الآثار والفلكلور والتاريخ_ مرجع سابق_ ص(311، 312).

ووسائل الترفيه غير المحلية السائدة[1]. وإن قبول البدائل من بعض الأفراد ولفترة من الوقت قد يجعلها تتحول إلى خصوصيات تميز طبقة أو فئة محددة في المجتمع، وقبولها لفترة أطول من معظم الناس يجعلها تصبح عموميات يتفق عليها عامة الأفراد ويمارسونها في حياتهم اليومية، وقد تتحول هذه الخصوصيات أيضاً إلى بدائل وقد تتلاشي أيضاً مع مرور الزمن إذا تم التخلي عنها. وبناءاً على ذلك تختلف الثقافة في المجتمعات نتيجة للعناصر المكونة لها فهي التي تمنح الجماعات والأفراد الهوية والخصوصية وترسم معالم شخصيتها وفق نظم متعارف ومتفق عليها تجمع الأفراد داخل مجتمعاتهم وتميزهم كجماعات بين الأمم وإن الحفاظ علي العموميات يحفظ كيان الأمة أرثا وتاريخاً وحضارة.

خصائص الثقافة:

1. أنها ظاهرة إنسانية، أي أنها فاصل نوعي بين الإنسان وسائر المخلوقات، لأنها تعبير عن إنسانيته، كما أنها وسيلته المثلى للالتقاء مع الآخرين.
2. أنها تحديدٌ لذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع ما وراء الطبيعة، من خلال تفاعله معها، وعلاقته بها، في مختلف مجالات الحياة.
3. أنها قوام الحياة الإجتماعية وظيفةً وحركة، فليس من عمل إجتماعي أو فني جمالي أو فكري يتم إنسانيًا خارج دائرتها. وتيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادّة وبشرًا ومؤسسات.
4. أنها عملية إبداعية متجدّدة، تُبدع الجديد والمستقبلي من خلال القرائح التي تمثلها وتعبر عنها فالتفاعل مع الواقع تكييفاً أو تجاوزًا نحو المستقبل، من الوظائف الحيوية لها.
5. أنها إنجازٌ كمّي مستمر تاريخيًا، فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق وتجدّد قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحّد معه هويَة الجديد روحًا ومسارًا، وهذا هو أحد محركات الثقافة الأساسي، كما أنه بُعد أساسي من أبعادها[2]. وذلك لأن لكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها، كما أن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها ومقوماتها المادية التي تتألف من طرائق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع في قضاء حوائجهم، والأساليب التي

---

[1]/ محمد زياد حمدان_ ثقافة المجتمع_ 1983م_ https://goo.gl/ymoX0X

[2]/ عبد العزيز بن عثمان التويجري_ الثقافة العربية والثقافات الأخرى_ السعودية_ ورقة بحثية_ 1998م_ ص(4،5).

يضعونها لإستخدام هذه الأدوات. فأدوات الصيد والزراعة والقتال أدوات ثقافية، والأزياء وأسلوب الترفيه أيضاً أشكال ثقافية وكلها عرضة للإغناء والزيادة والتعديل بفعل التطورات التي يتعرض المجتمع لها. وللثقافة أيضاً مقوماتها المعنوية والتي تتمثل في مجموع العادات والتقاليد التي تسود المجتمع والتي يتوارثها أفراده جيلاً بعد جيل، مثل القانون أو العرف الذي يحكمهم أو القيم والقواعد الأخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات بين بعضهم البعض. وعليه يمكن القول أن الإختلاف في المنتجات والسلوكيات والحضارة أساسه الثقافة والفكر الإنساني المثقف بكافة مستوياته العلمية والفنية والعقدية، وإن الثقافة هي التي تشكل هوية الإنسان عامة، وتحدد نسبته إلى جماعة بشرية دون أخرى. أي هي الأساس في تكوين الأمة وإنتماء أبنائها إليها. وهي ليست السمة الملازمة للإنسان فحسب بل تدخل في التكوين النفسي والعقلي وفي تربتها تنمو ملكاته وتتجلى قدراته، ولذا يكون بها معتزاً وعليها حريصاً فالثقافة سمة الأمة والعلامة الدالة عليها. وإنها أهم مقوم من مقومات هويتها ومرآة عبقريتها وعطائها الفكري والجمالي[1].

الخريطة الثقافية السودانية:

جمهورية السودان يقصد بها الحدود المرسومة سياسياً، يحدها من الشمال مصر وليبيا وجنوباً دولة جنوب السودان، وغرباً تشاد، وشرقاً بأثيوبيا وأريتريا والبحر الأحمر. عُرف السودان في التورآة بأسم كوش وفي الآثار المصرية عرف بأثيوبيا(وأثيوبيا هو الأسم الذي أطلقة اليونان علي جميع بلاد السود والشديدي السمرة ومعناه الوجه الأسود أو المحرق فهو علي إطلاقه يشمل بلاد السودان والحبشة. وأول من سكن هذه البلاد حسب المقولة الأكثر تداولاً هم "السود" وقد إختلف العلماء في أصلهم فمن قال إنهم نشئوا في القارة وتشعبوا فيها قبائل شتي علي ما نراهم اليوم ومن قال إنهم هاجروا إليها من أسيا عن طريق البحر الأحمر[2]. ومن أثيوبيا وكوش وسودان وادي النيل أختير أسم السودان لهذا البلد وهذه التسمية تتسم بالعنصرية المطلقة ومع ذلك ظل أهل السودان يحملون ذات الأسم للتعريف بهويتهم. وأن اللون الأسود كما هو معلوم نقيض اللون الأبيض ودونه في درجة الصفاء والنقاء والجمال ويشير إلي الحظ السيئ وإرتبط في الأذهان ببعض المفاهيم

---

[1]/ شحادة الخوري_ أوراق ثقافية_ مرجع سابق_ ص(42،7).

[2]/ نعوم شقير_ تاريخ السودان_ دار الجيل_ بيروت_ 1981م_ ص(9).

المخالفة والغير قانونية مثل السوق الأسود، القائمة السوداء وهو أيضاً لون الظلام وموحي للجريمة والشر والوحشية. بالإضافة إلى ذلك(كانت صفة "سودان" في التراث العربي والثقافة العربية تتضمن أيضاً مدلولات مهينة وكانت صفة سوداني مطابقة لصفة "عبد")[1]. وقد علق الروائي العالمي الطيب صالح على تسمية السودان بقوله: (تمنيت لو أن قادتنا سموا هذه البلاد سنار. ربما يكون وراء عدم إستقرار هذا البلد أن اسمه "السودان" لا يعني شيئاً لأهله. فما السودان؟ مصر هي مصر واليمن هو اليمن، والعراق هو العراق، ولبنان هي لبنان. ولكن ما السودان؟ فالإستعماريون أطلقوا هذا الأسم علي المنطقة التي تمتد من أثيوبيا في الشرق وحتى السنغال في الغرب. الأمم الأخرى أطلقت علي أوطانها أسماء تعني شيئا بالنسبة لها، وتركنا وحدنا نحمل هذا العبء علي أكتافنا[2]. فرومانيا سميت نسبة لشعب الروم والفلبين نسبة لفليب والسعودية أيضاً نسبة لجدهم سعود. وأن اللون الأسود موجود في كل شعوب العالم وليس حكراً على الإنسان السوداني ليميز ويعرف به.

وإن معيارية تسمية المكان الجغرافي أيضاً تخضع لعدة أسس يعبر فيها الأسم عن هوية وذاتية المكان. وقد تكون هذه الهوية لصفة فردية أو مجموعة من الصفات المتباينة يتميز بها الموقع. والتسمية قد تكون بناء علي خاصية طبوغرافية معينة أي الأسماء المختلقة من معلم طبيعي وقد تكون التسمية مشتقة من حيث هيئة الغطاء النباتي، ...الخ وهي تسميات تميز الأماكن بعضها عن بعض، ونستطيع أن نتعرف عليها وندركها من هويتها ونستخدم إدراكنا لتركيب الكثير من الصفات والملامح في أذهاننا مثل موقعها الجغرافي وموضعها وبعض الأماكن الهامة بها والأمر الذي يمكننا من تكوين صورة عقلية متكاملة عن المكان الجغرافي من خلال الأسم[3].

وبالرغم من ذلك يتميز الإنسان السوداني عن غيره من خلال التكوين الخلقي والنفسي والثقافي بمميزات لا يشترك فيها مع غيره. وهنالك العديد من البحوث التي أجريت بغرض تأصيل الإنسان السوداني والبحث عن هويته إستناداً على ساكينه. وقيل أن أول من سكن هذه البلاد "السود" وقد إختلف العلماء في أصلهم فمن قال أنهم نشئوا فيها وتشعبوا منها قبائل شتى على ما نراهم اليوم

---

[1]/ فضل الله أحمد عبد الله_ المسرح السوداني"مقاربات الأنا والأخر"_ قاف لخدمات الطباعة المتكاملة_ السودان_ 2010م_ ص(41).

[2]/ الطيب صالح_ مجلة المجلة_ 1989م_ https://goo.gl/6L4W9u

[3]/ صلاح عمر الصادق_ دراسات سودانية في الآثار والفلكلور والتاريخ_ مرجع سابق_ ص(340).

ومن قال أنهم هاجروا إليها من آسيا عن طريق البحر الأحمر، قالوا وما كانوا سوداً بل كانوا بيضاً فسودتهم حرارة الشمس وطبيعة القارة على توالى الأجيال كما قال ابن سينا: في الزنج حرّ غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا والصقلب إكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا[1]. وقد قال الجاحظ في ذلك لم يشوهنا الله بخلقنا سوداً فألواننا السوداء جاءت نتيجة أحوال البلاد "البيئة" والشاهد على ذلك أننا نجد السود بين القبائل العربية، مثل بنى سليم بن منصور الذين يعيشون بالحرّة. فكل سكان الحرّة سود، وحتى دببتها، ونعامها، وذئابها، وضباعها وبغالها ومعيزها وطيورها سوداء، بل إن هواءها نفسه أسود[2].

وقبل قدوم العرب للسودان كانت تسكنه ثلاث مجموعات عرقية كبيرة وهي: مجموعة النوبيون والبجا والزنوج وقد بدأ تزايد هذا العنصر في أفريقيا. وهاجرت إلى السودان عناصر من خارجه ويقال أن أبرز تلك العناصر العرب[3]. وإن القبائل العربية التي دخلت بأعداد وآفره في القرن الرابع عشر إختلطت بالسكان وأخذت عنهم الكثير مثل ما أخذوا عنها، وتزاوجت معهم وتزاوجوا معها، وقد سبقتها موجات عديدة من الهجرة العربية إمتزج أفرادها بالمجموعات الشمالية خاصة التي تقطن علي ضفاف النيل وفروعه ونتج عن كل هذا عنصر مميز في شخصيته وثقافته وإنتمائه. فهو عربي اللسان والثقافة أفريقي التقاطيع [4]. ومع أن ذلك يظهر بوضوح في شمال وجنوب البلاد إلا أن ذلك لا يدفع الباحث لقول أن إنسان الجنوب أفريقي خالص وأن الشمالي أيضاً عربي خالص إستناداً على الملامح الموجودة وبعض اللغات المتداولة في الإطار الجغرافي لبلاد السودان. وذلك لصعوبة فصل هذا المزيج الذي تكونت منه الأصول السكانية عبر التاريخ ويتأكد ذلك عند محاولة تشريح الذات أو الشخصية السودانية ثقافياً وعرقياً. ويرى الباحث أن ذلك هو مصدر قوة وثبات الهوية السودانية(الأفرو عربية) حتى وإن لم يعترف بها بعض المواطنين السودانيين زاعمين غير ذلك. (وإن الهوية السودانية(الأفروعربية) لها تميُّزها الخاص في الملبس

---

[1] نعوم شقير_ تاريخ السودان_ مرجع سابق_ ص(9،10).

[2] عبده بدوي_ السود والحضارة العربية_ الهيئة المصرية العامة للكتاب_ القاهرة_ 1976م_ ص(23).

[3] أبوبكر حسن مسعود_ اللغة العربية والهوية الثقافية(الحالة السودانية أنموذجاً)_ مرجع سابق_ ص(12).

[4] عبد الغفار محمد أحمد_ السودان بين العروبة والأفريقية_ مركز البحوث العربية للدراسات والتوثيق والنشر_ مصر_ 1995م_ ص(36).

والمأكل والفن والغناء والموسيقى واللهجة، بل حتى الملامح، بدليل إمكانية تمييز السودانيين عن بقية الأجناس المشابهة مثل الصوماليين والإثيوبيين والأمريكان السود، وهذا التمييز يجعل السوداني شديد الإعتداد بنفسه. ويفتخر بقول: عرب ممزوجة بي دم الزنوج الحارة ديل أهلي)[1].

ولذلك نجد أن الإدارة البريطانية فعلت كل ما في وسعها لحماية الهوية الجنوبية من العناصر المكونة للهوية الشمالية، خاصة اللغة العربية والإسلام وطريقة الحياة الشمالية. وإبدال اللغة العربية باللغة الإنجليزية، والتي أصبحت وسيلة الإتصال في الجنوب، وكذلك باللهجات المحلية. لقد أعتبرت اللغة العربية المفتاح الذي سيفتح الأبواب لإنتشار الإسلام وتعريب الجنوب وإدخال النظرة الشمالية للحياة. وقد أعتبرت الأسماء العربية أيضاً جزءاً من مكونات الهوية العربية التي يجب حماية الجنوبيين منها، فنصح زعماء القبائل وأتباعهم بعدم تبني أسماء عربية، أما أولئك الذين كانوا قد إستخدموها سلفاً فقد نصحوا بإبدالها بأسماء قبلية. وأسند التعليم في الجنوب للجمعيات التبشيرية مدعومة من الحكومة، للمساعدة في عملية تعديل الهوية الجنوبية في إتجاه أسلوب حياة غربي مؤسس على الديانة المسيحية واللغة الإنجليزية[2].

وإن الغزو الثقافي الغربي كان وما زال يستهدف الهوية الإسلامية ويسعى لإختراقها من خلال التنصير والإستشراق وقد أقر بذلك وزير المستعمرات الإنكليزية(أورمبسي جو) في وثيقة تاريخية بقوله:(إننا في السودان ونيجيريا ومصر ودول إسلامية أخري شجعنا وكنا علي صواب نمو القوميات المحلية، فهي اقل خطرا من الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامي)[3]. وهناك إجماع على وصف الحرب الأهلية في جنوب السودان، والتي إندلعت سنة 1955م بأنها حرب بين أناس يرتدون العمائم وأناس يلبسون ريش النعام[4]. ولأن الأزياء تعتبر من أحد المظاهر المعبرة عن الهوية الثقافية فقد أستخدمت كأداة لتمييز الفئات التي بينها الصراع وقد تأثرت منه أيضاً وذلك حين

---

[1]/ هويدا صلاح الدين_ الهوية والتعدد الإثني في السودان_ مجلة مستقبل الحركات الإسلامية_ مركز التنوير المعرفي_ السودان_ 2010م_ ص(9).

[2]/ الباقر العفيف_ ما وراء دارفور(الهوية والحرب الأهلية في السودان)_ مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان_ 2006م_ ص(42،43).

[3]/ خليل نوري مسيهر العاني_ الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية_ مرجع سابق_ ص(31).

[4]/ الباقر العفيف_ نفس المرجع السابق_ ص(13).

شكلت الأزياء الشمالية والتي إنتشر لبسها في الجنوب واحداً من مظاهر الهوية الشمالية كان لابد من السيطرة على إنتشارها من قبل المستعمر. حيث فرض الأزياء الغربية على الجنوبيون بدلاً من الأزياء العربية كما أوصوا التجار بعدم بيع الأزياء العربية للجنوبيين.

وفي عام1935م، كتب مدير المنطقة الغربية لبحر الغزال خطاباً إلي ثلاثة من وكلاء التجارة الرئيسيين الذين يزودون المنطقة بالبضائع، يوبخهم فيه علي عدم إتباعهم الحرفي لتوجيهات الحكومة فيما يتعلق بالملابس يقول الخطاب: "ألاحظ أنه بالرغم من وخلافاً للتوجيهات المتكررة فإن كميات كبيرة من الملابس العربية مازالت تصنع وتلبس. أرجو الإنتباه مستقبلاً إلي أنه من الممنوع تماماً صنع أو بيع مثل هذه الملابس. القمصان يجب أن تكون قصيرة بياقة وفتحة من الأمام علي الطريقة الأوروبية وليس برقبة مفتوحة كما يرتديها بقارة دارفور. وكذلك يجب عدم بيع "الطواقي" التي يضعها العرب علي رؤوسهم للف العمامة حولها في المستقبل يسري هذا الأمر علي جميع الوكلاء الخارجيين وعلي مالكي ماكينات الخياطة[1]. وإن الجنوب يقع بعيداً في قلب القارة الإفريقية. وهو الجزء الأقل تأثراً بالعلاقات التي تربط البلاد بالعالم الخارجي والأقل مساهمة في إنتاج السلع التبادلية سواء بالنسبة للتجارة الداخلية أو الخارجية[2].

وتلك إشارة إلى بعض الآثار السالبة التي يحدثها الإستعمار في الهوية الثقافية للبلد المحتل فإما أن يصبح مسخاً للمستعمر أو نسخة مُقلِدة لهويته. وهذا ينطبق على الحالة الراهنة للسودان والتي بدأت بتقسيمه معنوياً ثم إنتهت بتقسيمه حدودياً. وبقراءة التاريخ السوداني نجد أن المستعمر ساهم في تعميق النظرة العرقية والقبلية، والطائفية والتي هدفت سياستها إلى تفكيك الذات السودانية وإستخدام التنوع الثقافي كأدآة للتفرقة والنزاع بين الشمال والجنوب. (وإن التنوع الثقافي في السودان ينقسم إلي قسمين الأول تنوع ثقافي بمفهوم إصطلاحي مثال بعض مناطق جنوب السودان والأنقسنا وجبال النوبة والبجا وبعض القبائل العربية والثانية ما يعرف بالثقافة المتنوعة مثل التمازج الإثني لكثير من الثقافات مع بعضها في وسط السودان وشرق السودان وغربه، وللثقافتين أهمية ودور في تشكيل نسيج المعاني والأفكار وسلوك الأفراد في المجتمع والفنون والتراث الشعبي ومظاهر السلوك

---

[1]/ نفس المرجع السابق_ ص(42).

[2]/ محمد عمر بشير_ تاريخ الحركة الوطنية في السودان_ الدار السودانية للكتب_ الخرطوم_ 1980م_ ص(6،7).

علي حياة الناس في تجمعهم وتفردهم)[1]. وهذا التنوع أيضاً أكسب اللغة السودانية ميزة خاصة تُعرف بها الشخصية السودانية على الصعيد المحلي. مثال ذلك تباين اللهجة الشايقية والجعلية مع أن مصدرها اللغة العربية الأم. ولهذا أصبحت اللغة العربية الأكثر إنتشاراً في السودان كما باتت تمثل اللغة الرسمية والرئيسية وإلى جانبها نجد العديد من اللغات المحلية منها لغات البجا في شرق السودان وتشمل لغة(البني عامر والهدندوة والحلنقة والبشاريين والأمرار). وفي شمال السودان من مدينة دنقلا وحتى مدينة أسوان في جنوب مصر نجد اللغات النوبية والتي تشمل(الدنقلاوية والحلفاوية). وفي غرب السودان نجد اللهجات الخاصة با(لجور والفلاتة، والهاوسا والزغاوة والفور والداجو أو المساليت). وتتفرع اللغة العربية إلى لهجات عدة منها لهجة(الجعليين والبقارة والشكرية) وغيرهم[2]. ويختلف نطق اللغة العربية من مكان لآخر نتيجة تفاعلها مع اللهجات المحلية وهذا التفاعل أدى إلى رسوخ اللغة العربية في الثقافة السودانية وتميزها عن اللغة العربية المنتشرة في البلدان الأخرى. وفي إطار الدين والعقيدة نجد أن إنسان السودان عرف الوحدة والتعدد في العبادات ومارسها من خلال الطقوس حيث عبد الإنسان السوداني القديم، النار، والشمس وقدسوا الأحجار وبعض الحيوانات كما هو سائد في جنوب الفونج، وجنوب كردفان عند قبائل النوبة ومارسوا عبادة الأسلاف وتأثروا بالأرواح وأنعكس ذلك من خلال(التابو) عند بعض قبائل جنوب النيل الأزرق. كما عرفوا المسيحية عن طريق أثيوبيا ومصر الرومانية، وقد نجح المبشرون في نشر الدين المسيحي بين السكان في أواسط القرن السادس الميلادي. وإن الآثار الواضحة لهذا الأنسياب الحضاري بدأت تتجلي في نهايات العصر المسيحي. ففي بداية القرن السادس عشر تغلبت الثقافة العربية الإسلامية وأصبح الإسلام دين الدولة الرسمي بقيام مملكة الفونج التي شكلت منعطفاً تاريخياً مهماً في تاريخ سودان وادي النيل وبقيامها بدأ الميلاد المؤسسي لسيادة الدين الإسلامي ومن ثم الثقافة العربية[3]. وتدريجياً أصبح الإسلام واللغة العربية من أساسيات الثقافة السائدة في وسط وشمال السودان وإنعكس ذلك على كافة مظاهر الحياة فيه.

---

[1]/ عادل محمد الحسن حربي_ محاور درامية في الثقافة السودانية_ مطبعة جامعة الخرطوم_ 2005م_ ص(5).

[2]/ ويكيبيديا الموسوعة الحرة_ السودان_ 21فبراير2014م.

[3]/ فضل الله أحمد عبد الله_ الدراما والهوية في شعر محمد عبد الحي_ مرجع سابق_ ص(36).

المبحث الثالث

الهوية الثقافية

تمهيد:

تعتبر الهوية الثقافية تحقيق لوجود الفرد والجماعة وإثبات لخصوصيتهم وذلك بناءاً على محددات متعارف ومتفق عليها وفق إطارها المعبر عنها والتي تتجلى بصورة معلنة من خلال أنماط الكلام وأسلوب الأكل واللباس، وبما تستند إليه من فكر وقيم وأعراف وتقاليد ومعتقدات وقوانين نظم العلاقات ومعايير السلوك والتعاملات. ومن خلال الأزياء يمكن التعرف على الهوية الثقافية للفرد والمجتمع تأسيساً على الجانب التوصيفي الذي حدده الفرد أو أعلنه المجتمع كمعبر مميز لذاته. ويجيء هذا المبحث بناءاً على ما تناولته الجزيئة السابقة من البحث في مفهوم الهوية والثقافة السودانية والإستناد على ذلك كمسلمات.

الهوية الثقافية(Cultural Identity):

هي معرفة وإدراك الذات القومية ومكوناتها من قيم وأخلاق وعادات وتقاليد ودين، وهي السمات والخصائص التي يتميز بها شعب ما عن غيره من الشعوب، وترتبط هذه السمات بالسلوكيات العامة لمجموع الأفراد والعلاقات السائدة، والمنتج الفني والثقافي والتي تميز في مجموعها هذه الجماعة أو هذا المجتمع[1]. ومسألة الهوية الثقافية تحيلنا علي مسألة أكثر إتساعاً وهي مسألة الهوية الإجتماعية، والتي تعبر عن محصلة التفاعلات المتنوعة بين الفرد ومحيطه الإجتماعي، قريباً كان أو بعيداً. وهوية الفرد الإجتماعية تتميز بمجموع إنتماءاته في النسق الإجتماعي: الإنتماء إلي صنف جنسي وإلى صنف عمري وإلى طبقة إجتماعية وإلي أمة..الخ والهوية تمكن الفرد من أن يحدد لذاته موضعاً ضمن النسق الإجتماعي وأن يحدد الآخرون موضعه إجتماعياً، وبالإضافة لتحديد الأفراد نجد أن الهوية الإجتماعية تحدد المجموعة أيضاً من خلال الدمج والإقصاء في آن معاً: والمجموعة تشمل أعضاء متماثلين، من ناحية ما وإن الهوية تبدو من هذا المنظور، ككيفية تصنيف للتمايز قائمة علي الإختلاف الثقافي وعليه فإن ما يهم لتحديد هوية مجموعة ما ليس جرد مجموع سماتها الثقافية المميزة بل أن نرصد من بينها، تلك التي يستعملها

[1]/ محمد منير حجاب_ الموسوعة الإعلامية_ دار الفجر للنشر والتوزيع_ القاهرة_ 2003م_ ص(2609).

أفراد المجموعة ليثبتوا تمايزاً ثقافياً ويحافظوا عليه بتعبير آخر، ليس الإختلاف في الهوية نتيجة مباشرة للإختلاف الثقافي إذ لا تنتج ثقافة معينة بذاتها هوية مختلفة فهذه لا يمكن أن تتولد إلا عن تفاعلات بين المجموعات وعن مجريات التمايز التي تضعها هذه المجموعة موضع الفعل، خلال علاقاتها، بعضها ببعض[1]. وإستناداً على ذلك نجد أن للهوية وجه آخر مكمل لها وهو الإنتماء الذي يعرف بأنه معني موجود داخل كل فرد وعلي إختلاف المستويات، وهو الشعور الذي يوجد لديهم منذ الصغر ويقوي من خلال نشأة الفرد فيتكون لديهم هذا الشعور الذي يترجم لأفعال داخل المجتمع، فإذا كانت الهوية هي عملية الإدراك الداخلية لذاتية الشخص والتي تمدها عوامل خارجية يدعمها المجتمع، فإن الإنتماء هو الشعور بهذه العوامل الخارجية والذي يترجم من خلال أفعال تتسم بالولاء لهذه المجتمعات التي ينتمون إليها دون سواها[2]. وعليه نجد أن الهوية الثقافية تتحرك في دوائر متداخلة ولكنها ذات مركز واحد وهي:

1. الفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية حزباً أو نقابة الخ... هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة. عبارة عن "أنا"، لها "آخر" داخل الجماعة نفسها: "أنا" تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع هذا النوع من "الآخر".

2. والجماعات، داخل الأمة، هي كالأفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها "أنا" خاصة بها و"آخر" من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه. والشيء نفسه يقال بالنسبة للأمة الواحدة تجاه الأمم الأخرى. غير أنها أكثر تجريداً، وأوسع نطاقاً وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والإختلاف[3].

وذلك لأن الملامح العامة للهوية هي التي تحدد وجودنا، وتحقق فاعليتنا، وهي لا تمثل مجرد إنتماء إرادي بقدر ما تمثل منهجية حياتية عميقة، وهي تشبه الشفرة التي يتعرف بها الآخرون علينا وهي شفرة تجمع عناصرها المعرفية من التاريخ والثقافة، والطابع الحياتي، والواقع الإجتماعي. وتبرز في تعبيرات خارجية، كالرموز، والإشارات، والآثار، والمنقولات والعادات والتقاليد

---

[1]/ دينس كوش_ مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية_ مرجع سابق_ ص(153، 149).

[2]/ سناء مبروك_ الهوية والإنتماء الإجتماعي في شمال سيناء_ المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية_ القاهرة_ 1991م_ ص(218).

[3]/ محمد عابد الجابري_ العولمة والهوية الثقافية_ مركز دراسات الوحدة_ لبنان_ 1998م_ ص(298،299).

بإعتبارها عناصر معلنة تجاه الآخرين[1]. وتتكون الذات على أساس مجموعة من العقائد التي يعتنقها الإنسان بالإضافة إلى الإتجاهات والأحكام والقيم والخصائص المميزة له. ويستطيع الفرد من خلال ما يرتديه من أزياء أن يظهر بعض جوانب هذه الذات أو يخفيها بالإضافة إلى ذلك يمكنه التعبير عن مشاعره وأن الإنسان عندما يتهيأ إلي إحتفال أو مناسبة شخصية أو أسرية أو إجتماعية أو رسمية_ يحرص علي أن يرتدي ما يناسبها وما يضفي عليه الوقار والجمال لتعبر للآخرين ولنفسه قبل ذلك عن سعادته إذا كانت المناسبة سعيدة أو عن مشاعره وتضامنه إذا كانت المناسبة غير سعيدة. فهو يريد أن يترك لدي الآخرين إنطباعاً ما يؤثر فيهم ويعطيهم إنطباعاً مرئياً عن حالته المتضامنة مع المناسبة المشارك لهم فيها[2].

وفي ذات الإتجاه نجد أن الإنسان بطبعه يميل إلى التواصل مع محيطه لكسب وتقوية صلاته الإجتماعية، ولكن حين يضع نفسه في مواجهة الآخر يفكر بالكيفية التي يظهر بها نفسه وإن هذا يتطلب أشياء مهمة جداً أهمها وعي الفرد بهويته وأن يدرك الأشياء التي تلاءم بنيته الجسدية ومرحلته العمرية ومكانته الإجتماعية، والإقتصادية، وطبيعة عمله والصورة التي يرغب في أن تكون لدي الآخرين عنه ..الخ ففي كل ثقافة هنالك هيئه تعتبر مثالية للتعبير عن الذات وأخري مقبولة وأخرى مرفوضة إجتماعياً ومرآعاة ذلك من شأنها أن تحقق للفرد جانباً من الرضا والإعجاب بواسطة مظهره، ونوعية الملابس وطريقة إرتدائها مثلما تجلب الإحترام تجلب أيضاً السخط والإشمئزاز. وقد يصدر الناس أحكامهم في بعض الأحيان علي الأفراد الذين يقابلونهم في حياتهم اليومية علي أساس ما يرتدونه من ملابس. وقد توصف فتاة بالإستهتار إعتماداً علي ما ترتديه، وفي هذه الحالة يصدر الحكم علي سلوك الفتاة ليس علي أساس من دافع هذا السلوك وحقيقته ولكن تبعاً لما ترتديه من أزياء، وقد يحكم علي شخصية متقدمة في السن بأنها في حالة من الصبا ليس علي أساس دراسة وافية لسلوكها وتصرفاتها وإتجاهاتها، ولكن تبعا لما ترتديه من ملابس لا تتناسب مع سنها، وقد يوصف شخص ما بأنه وقور إعتماداً علي ملبسه الوقور دون

---

[1]/ فيصل الحفيان_ مقالات متعلقة بين اللغة والهوية_ شبكة الألوكة الإلكترونية_ ص(9).

[2]/ أبو الحسن سلام_ المخرج المسرحي والقراءة المتعددة للنص_ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر_ الإسكندرية_ 2003م_ ص(303).

دراسة لسلوكه وتصرفاته وطريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة، وقد تترك الملابس الرديئة لأحد الموظفين أثراً سيئاً في زملائه لا يمحوه سلوك هذا الموظف وتفكيره الذي قد يختلف عن مظهره[1].

وعليه نجد أن الهوية تتكون عندما يحاول الناس إيصال صورتهم إلي الآخرين وهم قد ينجحون في ذلك وقد يخفقون. وإذا أخفقوا سوف يدركون صعوبة الإحتفاظ بالهوية التي يريدونها. والهويات لا تتعلق فقط بإنطباعنا عن أنفسنا، وإنما أيضا إنطباعنا عن الآخرين وإنطباع الآخرين عنا. فالهوية ذات معني مزدوج، فهي داخلية(internal) بمقدار ما نعتقد حول هويتنا، وخارجية(external) تتعلق بالطريقة التي يرانا فيها الآخرون. والهويات تتكون وتستقر وفق علاقات متداخلة بين هذه العوامل الداخلية والخارجية، وهي تتفاعل لتنتج الهوية، والعوامل الخارجية(كيف يرانا الآخرون ويستجيبون لنا) ربما تصطدم أو تتجاهل أو تدعم وتقوي نظرتنا عن أنفسنا. ومهما كانت الطريقة فإن الهوية تنشأ من بين هذه العلاقة بين أنفسنا والآخرين[2].

ولهوية الأزياء أهمية كبري في حياة الفرد فمن خلال شكل وتصميم الزي يكتسب الفرد مظهر أفضل يحقق له القبول والإعجاب والإهتمام من قبل الأخرين وهذا المظهر يميزه داخل أفراد أسرته وزملاءه في الدراسة أو العمل كما يعكس بوضوح شخصيته وثقافته وميوله وحتى طباعه. وعليه يتم التعارف الإجتماعي أولاً من خلال الأزياء كونها تنطوي على مجموعة من العلامات والرموز والتي تحدد موقع الفرد في المجتمع. ولكل شخصية فردية كانت أو جماعية مظهر يناسبها وتشير عبره إلى ذاتها وعليه يخضع الزي إلى عده إعتبارات منها طبيعة الشخصية ودورها داخل محيطها أو خارجه. وبمثلما تؤثر الأزياء علي الفرد تؤثر أيضاً على المجتمع من حيث أنها واجهة له، وهي التي تعكس حضارة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد.

وإذا نظرنا إلي المجتمع علي إنه يمثل مجموعة من الأفراد، فالثقافة تعكس طريقتهم في الحياة، وإذا إعتبرنا المجتمع مجموعة العلاقات الإجتماعية فالثقافة هي محتوى هذه العلاقات، وإذا كان المجتمع يهتم بالعنصر الإنساني وبتجمع الأفراد والعلاقات المتبادلة بينهم، فالثقافة تعني

---

[1]/ علية أحمد عابدين_ دراسة في سيكولوجية الملابس_ دار الفكر العربي_ القاهرة_ 2000م_ ص(45).

[2]/ هارلمبس وهولبورن_ سوسيولوجيا الثقافة والهوية_ ت: حاتم حميد محسن_ دار كيوان للطباعة والنشر_ سوريا_ 2010م_ ص(105،106).

بالمظاهر التراكمية المادية واللامادية التي يتوارثها الناس ويستخدمونها ويتناقلونها[1]. وذلك هو غموضها فبقدر ما ينتج المجتمع ثقافة تنتج الثقافة مجتمعاتها. وبقدر تفاعل الأفراد مع بيئتهم وإستجابتهم للحاجات المتجددة تنمو الثقافة ويتكون المجتمع.

المجتمع(society):

عرف علماء الإجتماع المجتمع بأنه مجموعة من الناس تجمعهم ثقافة مشتركة ويتفاعلون فيما بينهم طبقاً لنظم وقواعد وقوانين يتفقون عليها فيما بينهم، ولهم أهداف موحدة وشعور بالعضوية[2]. ومثلما تؤثر الجغرافيا والبيئة علي حياة الإنسان من خلال العوامل المناخية، يؤثر المجتمع على الإنسان من ناحية التقاليد والعادات والأعراف والقيم والمعايير التي أوجدها وحققها من خلال عملية التنشئة الإجتماعية(socialization) لكي تحافظ على وحدته وتنظم حياة أفراده لضمان نسق إجتماعي متوازن ومستقر. وبناءاً على ذلك نجد أن لكل مجتمع بالضرورة مجموعة من القيم والعادات والتقاليد من أجل توجيه وضبط سلوك الفرد وتنظيم علاقاته بالآخرين، وإن الإتصال الحتمي بين المجتمعات أظهر العديد من الفروقات الثقافية والتي كان لعناصر الثقافة أثر مباشر ودور هام في تحديدها وذلك لأن المحتوي الثقافي في المجتمعات ينتقل من الجيل السابق إلي الجيل اللاحق مشروطاً بقيم وتقاليد وعادات مجتمعية تَّم تحديدها مسبقاً. وأهمية ذلك تتجلي ليس في كونها مصدر تأثير مباشر علي سلوك الفرد والجماعة فحسب بل لأن تأثيرها يمتد ليشمل المجتمع وإرتداء أنماط مختلفة من الأزياء من حيث الألوان والخامات وطرق الإرتداء يعكس السلوك الذي إختاره الفرد أو المجتمع للتعبير عن ذاته ومن خلال هذا التعبير المرئي يمكن أن نتبين ثقافة كليهما والملابس كما تعبر عن الذات الفردية تعبر أيضاً عن الجماعية للمجتمع بأكمله. بالإضافة إلى ماذكر يمكن للأزياء أن تحدث تغييراً إجتماعياً بين أفراد المجتمع، وعلي سبيل المثال تلك الإتجاهات الخاصة بلبس الشباب المتطرف كأزياء(الهيبز والخنافس) والتي أهدرت قيم المجتمع، وتظهر هذه الإتجاهات نتيجة لرفض الشباب التفاوت الكبير بين طبقات المجتمع وإعلان سخطهم علي هذا المجتمع، وعدم قدرتهم علي تحقيق رغباتهم فيعلنون عدم تكيفهم مع المجتمع من خلال الملابس

---

[1]/ محمد حافظ دياب_ الثقافة والشخصية_ مركز التعليم المفتوح_ جامعة بنها_ كود519_ (ب.ت)_ ص(42).

[2]/ أحمد عمر عبد الله وأخرون_ لأصول التربية العامة_ مكتبة جامعة السودان المفتوحة_ 2005م_ ص(92،139).

ولكن كثيراً من الشباب إتخذها موضة مما أدي إلي هدم قيم المجتمع والإساءة إليه. وبناءاً علي ذلك فإن الملابس تعكس علي الإنسان سلوكاً عادياً وغير عادي. ومما لا شك فيه أن الملابس لها تأثيرها علي الحالة المزاجية للشخص فقد يشعر بالسرور والإعجاب عند إرتداء زي معين وقد يشعر بالضيق والحزن وربما الخجل أيضاً، فالأول يقربه من المجتمع الذي يعيش فيه بينما الآخر يجعله في عزلة وإنطواء، كما أن الملابس تساعد علي التفاعل مع الجماعة ولها تأثيرها فهي تعطي الثقة بالنفس، وتساعد علي خلق الثقة بالنفس وإحترام الذات، وعلي السعادة والحرية أو الخجل والحساسية فهي حلقة الإتصال بين الإنسان ومجتمعة ويتوقف علي ذلك إهتمام الفرد بها[1].

المحددات العامة للهوية الثقافية:

البحث عن المحددات العامة للهوية الثقافية يقودنا لتتبع عددًا من المفاهيم والتي تشكل مرتكزات هامة للخريطة الثقافية الفردية والجمعية(وتنطلق كافة هذه المفاهيم من تفاعل الذات والآخر وعناصر البيئة المادية، وأنماط السلوك، فمن تفاعل الذات بالآخر ينتج ما يسمي بالقوالب الجامدة(Stereotypes) ومن تفاعلها بعناصر البيئة المادية ينتج ما يطلق عليه المعايير(Norms) والأدوار(Roles) والإتجاهات(Attitude) ومن تفاعل الآخر بأنماط السلوك تنتج المثل(Ideas) والآمال(Expectations) ومن تفاعل عناصر البيئة المادية بأنماط السلوك الثقافية تنتج القيم(Values)[2]. وعلى أساس القيم تنشأ العادات والتقاليد والمعايير الإجتماعية والتي تعتبر من المحددات العامة للهوية الثقافية.

القيم(values):

تعتبر القيم حقيقة سيكولوجية غير قابلة لأي وسيلة من وسائل القياس مما توصل إليه العلماء وتكمن حقيقتها في العقل البشري، وتعتبر القيم إعتقاداً من نسج الخبرة الإنسانية، وهي جزء لا يتجزأ من كيان هذه الخبرة وما يعتقده الفرد صواباً وذا قيمة يتوقف إلي حد كبير علي المعايير التي يضعها المجتمع الذي يعيش فيه. وإن الإنسان مقيداً بأوضاع المجتمع وأوامره ونواهيه ومعاييره

---

[1]/ أنظر: علية أحمد عابدين_ دراسة في سيكولوجية الملابس_ مرجع سابق_ ص(55،169).

[2]/ أبو أصبع وأخرون(1997م) في بدر بن جويعد وأخرون_ العولمة الثقافية وأثرها على هوية الشباب السعودي_ مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية_ 2007م_ ص(40).

فهو لا يبتكر لنفسه قيماً وأخلاقيات إنما يستمدها من المجتمع والبيئة، وهو لذلك لا يسلك سلوكاً أو يرتدي ملابس مخالفاً للمجتمع الذي يعيش فيه. ولذا فإن خروج الفرد علي الجماعة ولا سيما في ناحية الملبس يعد خروجاً عن المألوف مما يجعله عرضة للنقد الذي قد يصل أحياناً إلي حد السخرية. وليست القيم كلها واحدة في المجتمعات البشرية وإنما هي نسبية تختلف بإختلاف النماذج الدينية والثقافية والسياسية والفنية، ويتأثر كثير من الناس بالقيم التي نشأوا عليها تأثراً كبيراً لدرجة تجعلهم لا يرون قيماً أخري تخالفها.

العادات(habits):

هي الأفعال المتكررة التي يمارسها الأفراد المختلفون في المجتمع المحلي، أي أنها المعتقدات النموذجية التي يعتادها الناس والإتجاهات والتصرفات التي تمارس داخل المجتمع المحلي. والعادات الشعبية متنوعة، منها ما أعتاد الناس عليه في المسكن والمأكل والملبس، مثل إرتداء الثياب الجديدة في الأعياد، وهذه العادة منتشرة في الأحياء الشعبية والقرى أكثر كثيراً من الأحياء الراقية، فهم لا ينتظرون الأعياد لارتداء الجديد من الملابس[1]. وفي السودان إعتاد الرجال بمختلف الأعمار على إرتداء الجلابية السودانية بكامل أناقتها عند الذهاب إلى صلاة الجمعة وفي عيد الفطر والأضحى. وهنالك العديد من العادات السودانية المعبرة عن الهوية الثقافية منها عادة الشلوخ أو تشليخ الوجه وهي عادة قديمة أُستخدمت لتمييز الفرد والقبيلة التي ينتمي إليها ولهذا أخذت أشكالاً عديدة وإختلفت في مكان وضعها على الوجه حيث نجدها في جنوب السودان توضع غالباً في الجبهة بينما في مناطق أخرى توضع على جانبي الوجه وهي عادة قديمة عرفت منذ العهد المروي(750ق.م_350م) وشملت معظم أجزاء السودان وتميزت قبيلة الشايقية وأفرادها بثلاثة خطوط أفقية متوازية يمتد أوسطها من عند الفم حتى أقصى الخد أما الجعليين فيأخذ الشلخ عندهم حرف(T) أو الشكل(H) ويوضع في منتصف الخد وكما عرف الدناقلة والبديريه بثلاثة خطوط عمودية طويلة وعميقة بينما ذات الشلوخ عند المحس ولكن طويلة ورفيعة[2].

---

[1]/ أنظر: علية أحمد عابدين_ دراسة في سيكولوجية الملابس_ مرجع سابق_ ص(129).

[2]/ يوسف فضل حسن_ الشلوخ أصلها ووظيفتها في سودان وادي النيل الأوسط_ دار جامعة الخرطوم للنشر_ 1976م_ ص(24،55،53).

التقاليد(traditions):

ذكرنا سابقاً أن العادات تتمثل في السلوك المستقر والثابت لدي الفرد والجماعة بينما نجد التقاليد هي عبارة عن التجارب التي مرت بالجماعة في الماضي ويتناقلها السلف عن الخلف أو هي إنتقال العادة أو العرف من جيل إلي جيل عن الطريق الإجتماعي، مما يساعد علي قوة التقاليد الإطار المحدد الذي تعيش فيه العائلة في القرية وأفرادها، وضيق المدى الذي تذهب إليه علاقاتها وإنتهاك التقاليد يعد تهديداً للمجتمع ولاسيما عند المجتمعات غير المتحررة، وقد تخضع التقاليد للتغيير، لكن ببطء شديد للغاية. وفي المجتمع الصغير كمجتمع القرى تكون التقاليد أكثر تأصلاً ورسوخاً بسبب توارثها وإنتشارها بصورة عريضة. وتعني التقاليد بالنسبة للملابس تلك الأنماط والممارسات الملبسيه التي تنتقل عبر الأجيال وتنشأ خلال فترات من الإستعمال الطويل، وقد فرق بين التقليد والموضة أن الناس في الموضة يحاكون معاصريهم وفي التقليد يحاكون آباءهم وسابقيهم. وللتقاليد أهمية في الحياة الفنية والتطبيقية ويظهر ذلك في ملابس بعض البلدان الصغيرة فالتقاليد السائدة تجعل الملابس تتبع من قواعد موروثة تمثل قوالب إرتداها الناس بعد مرور زمن فأكسبها الإحترام والتقديس. كما أن هناك بعض العادات يكون باعثها الإعتقاد في القوة الروحية لبعض الأفراد، وأن ملامسة الملابس لأجسامهم تكسبها شيئاً من قوة صاحبها وروحانيته، وبمثل هذا يمكن تفسير عادة التبرك بملابس الأولياء. ومن التقاليد التي يتبعها الأفراد في المجتمع، إرتداء الملابس الوطنية في الاحتفالات الرسمية، وهذا واضحاً في الزي الوطني الياباني (الكيمونو) و(الساري الهندي)، و(الثوب النسائي السوداني) و(العباءة الخليجية)[1].

المعايير الاجتماعية(social standards):

المعايير هي النمط الشائع للسلوك العام والذي يتميز به الأفراد وتكون في إطار إجتماعي معين يحول دون إحداث التغيير. وأن لكل ثقافة معاييرها الخاصة بها، وما تراه ثقافة ذا قيمة تحكم عليه ثقافة أخري بأنه غير ذي قيمة، فمثلاً نجد مفهوم الحشمة والعورة يختلفان بإختلاف البيئات والثقافات، فتتفاوت الأثواب طولاً وقصراً وإمتداداً ولوناً بحسب محددات الثقافة[2]. لأنه ليس هنالك

---

[1] أنظر: علية أحمد عابدين_ دراسة في سيكولوجية الملابس_ مرجع سابق_ ص(132).

[2] أنظر: نفس المرجع السابق_ ص(131).

معيار ثابت في كل الثقافات لنوعية وأشكال الأزياء التي تتطلبها الحشمة في جميع المجتمعات وهي نسبية تختلف بإختلاف الجماعات وطبيعة ثقافتها وهي تختلف في المجتمع الواحد بإختلاف أقاليمه المحلية وثقافاته الجزئية أو الفرعية. وتأسيساً علي ذلك يُعرف الباحث الهوية الثقافية للأزياء بأنها الخصائص المميزة والمتمثلة في الخامة واللون وشكل التصميم وطريقة الإرتداء والتي إكتسبتها الأزياء من محيطها المحلي وأصبحت عبر التاريخ ذات جذور متأصلة في نفسية أفراد المجتمع الواحد معبرة عن الخصوصية والموروث الثقافي للذات الإنسانية عامة والشخصية السودانية على وجه الخصوص. وذلك لأن لكل جماعة بشرية مجموعة من السمات الثقافية والتي يمكن أن تستخدمها كمحددات لهويتها. وتعتبر هذه بعض المؤشرات التي أدت إلي تباين الهوية الثقافية للأزياء وجعلت إختلافها من مجتمع إلى أخر أمراً ممكنا. وفي السودان يظهر ذلك بوضوح في الشمال والشرق والغرب والوسط والجنوب قبل إنفصاله، وهذا التباين سنتناوله بالتفصيل لاحقاً. وبناء علي ما ورد في هذا الفصل يمكن القول أن أهمية الهوية الثقافية للأزياء بالنسبة للفرد والجماعة والمجتمعات تتمثل في أنها:

1. تظهر الإتفاق والإختلاف وما هو مرغوب وما هو مرفوض بين الأفراد والجماعات.
2. تنمي لدي الأفراد الإحساس بالإنتماء وتدعم الصلات الإنسانية وتقوي الروح الجماعية.
3. تكون لديهم إتجاهات وأهداف مشتركة وميول متقاربة تساعد علي تميزهم داخل نطاق المجتمع دون أن يتعارض هذا مع تجانس النسق الثقافي العام.

وبما أن الهوية الثقافية تعتبر عاملًا هاماً في تصنيف وتمييز المجتمعات والأمم والأفراد تصبح الأزياء التاريخية شفرتنا للتعرف علي الثقافة المميزة للفرد والجماعة والمجتمع. بصورة تعكس وتؤكد الهوية الثقافية في العصور التاريخية المختلفة بشكل قاطع، وهذه الجزئية من البحث تؤسس إطار نظري مهم في هيكل هذه الدراسة والذي بدونه لا يستطيع الباحث إثبات الخصوصية التاريخية والثقافية للأزياء.

الفصل الثاني
الأزياء التاريخية

المبحث الأول
نشأة وتطور الأزياء

تمهيد:

تعد الأزياء من أهم المكونات الثقافية الدالة على هوية الفرد كونها تعبر عن شخصيته وتحدد إنتماءه ومكانته ومستواه المعيشي، الذي يتميز به عن باقي الأفراد الآخرين داخل مجتمعه وخارجه أيضاً ولذا تعتبر الأزياء أول مؤشر للتعرف على الهوية الثقافية لأي أمة، وأسبق دليل على ذلك أن مظهر أي شخص هو الذي نراه أولاً قبل أن يُخبرنا إلى أي بلد ينتمي فمن خلال ما يرتديه من أزياء نستطيع مباشرة أن نتعرف على هويته الثقافية. وإن إرتباط الأزياء بثقافة المجتمع السائدة جعلها مواكبة لأحداث التاريخ وجزء معبر عنه ومتغير معه، ولهذا شهدت العديد من التغيرات عبر العصور المتتالية علي مستوى التصميم والشكل واللون والقيمة الفنية والجمالية، وأختلفت أيضاً من مجتمع لأخر بحسب البيئة والمناخ وبحسب الخامات المصنعة منها والأغراض المصنعة لها.

مفهوم الأزياء:

(زيي) بيائيين أو(زِىّ) بياء واحدة مشددة، كلمة فارسية الأصل، تشير إلى هيئة الملابس ومنظرها، وطريقة إختيارها بحسب مظهر معين وذوق خاص[1]. وزيأ: جعله ذو زى وتزيأ صار ذا زى، تزيأ بزى القوم: لبس كما يلبسون، والزى يجمع على أزياء[2]. والزى يعبّر عن "تصميم مميز وفريد، وعندما يصبح شائعاً يقال أنه موضة، وهو التصميم السائد الإستعمال في فترة زمنية محددة[3]. وهنا يتضح الفرق بين مفهوم الملابس والأزياء فالملابس تشير إلى الجوانب المعنوية غير المادية وهي وظيفية في طبيعتها فيما يتعلق بالستر ودونما النظر إليها من حيث الخامة واللون والتصميم. أما الأزياء فتجسد مظاهر الشخصية وموضوعيتها وتشتمل علي الجانب الجمالي الذي يتخيره الإنسان ليرضي رغباته ومزاجه، وأيضاً الجانب الدلالي الذي يصنفه ويؤكد علي هويته[4]. وإن هذا الإختلاف بطبيعة الحال يعود إلى العوامل الجوية والبيئية والجغرافية والتاريخية

---

[1]/ أنظر: مجموعة من الباحثين_ المنجد في اللغة العربية المعاصرة_ دار المشرق_ لبنان_ 2001م_ ص(638).

[2]/ أبو الحسن سلام_ المخرج المسرحي والقراءة المتعددة للنص_ دار الوفاء_ الإسكندرية_ 2003م_ ص(299).

[3]/ نجاة محمد سالم باوزير_ فن تصميم الأزياء_ دار الفكر العربي_ القاهرة_ 1998م_ ص(16).

[4]/ عوض الكريم الزين بشرى_ ورقة بعنوان: البعد التأصيلى للملابس والأزياء_ (ب.ن)_ أكتوبر 2011م.

والإقتصادية والإجتماعية والنفسية والدينية والسياسية والتي على إثرها تتشكل الخصوصية الثقافية للإنسان وبناء على ذلك عرف علماء اللغة الأزياء بأنها(هوية الشعب)[1]. وبناء على ذلك يختلف مصطلح الزي(costume) عن المَلْبَس(clothing) كون الملبس يأخذ طابع عام بينما الزي مصطلح خاص يعني الكساء(garment) المُعبر عن مظهر الإنسان كاملاً والذي يكسبه هيئة محددة. ولهذا يصبح للزي أسلوب تنسيقي متكامل مثل الأزياء الموحدة(Uniform) كأزياء الجنود، والمضيفات ورجال المرور، وعمال النظافة، والممرضات والكشافة والأزياء المدرسية والجامعية..الخ ولأن الأزياء تميز هيئة الإنسان كاملة نجدها أيضاً تشتمل على الإكسسوارات مثل القفاز والنقاب وأغطية الرأس والأحزمة، كما ترتبط أيضاً بأسلوب تصفيف الشعر وتنسيق الشارب واللحية، وأشكال التزيين البدائية والحديثة كتلوين الجسم وثقب بعض أجزائه كالأذن والأنف"[2].

النشأة الأولى للأزياء:

إن تاريخ تغطية الإنسان لجسدهِ يعود إلي أزمان بعيدة يحيلنا البحث فيها مباشرة إلى عهد النبيّ آدم وزوجه حوّاء(عليهما الســـلام)، والتحول الذي حدث لهم بعد معصيتهم لله تعالى والذي على إثره إنتقلا من الجنة إلى الأرض، وقد ورد ذلك في القرأن الكريم وفي الكتاب المقدس، ومن هنا ظهرت أهمية الملابس وأدرجت ضمن الحاجات الأساسية للإنسان، والبشرية كافة وتجلت قيمتها في ستر الإنسان أولاً ومن ثم تمييزه وتكريمه دون سائر المخلوقات ولهذه الأسباب مجتمعة كان وجودها سابقاً للمسيحية والإسلام وقبل بدء الحياة الدنيا على وجه الأرض.

المعاني الوظيفية والحسية للأزياء:

يستند الباحث في بيان مجمل هذه المعاني إلى ما ورد في القرآن الكريم من الآيات ذات الإشارات والمعاني الواضحة لمفهوم ودلالة الأزياء وهي:

1. أنها من الحاجات المهمة والأساسية والتي لا يستطيع الإنسان الإستغناء عنها مثل الطعام والشراب والمأوى(إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى)[3]

---

[1]/ ثريا سيد نصر_ تاريخ أزياء الشعوب_ عالم الكتب_ القاهرة_ 1998م_ ص(13).

[2]/ إيناس مصطفى وآخرون_ الموسوعة العربية الميسرة_ أبناء شريف الأنصاري_ بيروت_ ط3_ 1965م_ ص(252).

[3]/ سورة طه_ الآية(118،119).

2. أنها تغطي عورة الجسد الإنساني فيرتفع بذلك مكانة دون المخلوقات الأُخرى(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا)[1]

3. أنها ستار ضد الكشف بما يحفظ للإنسان هيبته وخصوصيته(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)[2]

4. أنها ذات مكانة عظيمة في النفس البشرية وذلك لأنها مُنزله من عند الله، وبها يتزين الإنسان ويرتفع قدره(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)[3]

5. أنها وسيلة للتكيف مع البيئة وحماية للجسد من تقلبات الطقس وأهوال الحروب(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)[4]

6. أنها تعبر عن الهوية الثقافية للإنسان، ففي الزمان القديم حينما أرسل الله جل وعلا الملائكة أرسلهم بصورة بشر وهذه الصورة أكدتها في إعتقاد الباحثة هيئتهم التي أرسلهم بها الله بملامح ذاك العصر بالإضافة إلي الأزياء التي أخفت هويتهم كملائكة، وهنا نذكر بعض هذه المواقف التي أتت فيها الملائكة وفق الملامح والهيئة البشرية:

أ. لمَّا أتت إلى سيدنا لوط عليه السلام ولم يميزهم من قومه ولم يعرفهم إلا حين(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)[5]

ب. كذلك أيضاً لما أرسل الله الملك جبريل إلى السيدة مريم العذراء عليها السلام ليبشِّرها بسيدنا المسيح عليه السلام. أتاها بهيئة بشر لذا لم تدرك حينها انه ملك(قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا)[6]

---

[1]/ سورة الأعراف_ الآية(20).

[2]/ سورة الأعراف_ الآية(22).

[3]/ سورة الأعراف_ الآية(26).

[4]/ سورة النحل_ الآية(81).

[5]/ سورة هود_ الآية(81).

[6]/ سورة مريم_ الآية(19).

ج.وفي موضع آخر ما حدث لسيدنا داوود عليه السلام حين جاءته الملائكة تحكمه على هيئة خصمان(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْض)[1]

تطور الأزياء عبر التاريخ:

كثرت الأساطير فيما يتعلق بحياكة الملابس حيث ينسبها قدماء المصريين للإله(راع)، بينما ينسبها العراقيون القدماء للإله(مردوخ) والذي أوصى بها منعاً للإباحية[2]، كما يقال أيضاً أن إمرأة تدعى(برتاBerta) كانت أول من غزلت بيدها ونسجت أول ثوب في العالم لتجتذب به أنظار المعجبين. أما العرب فينسبون صناعة الملابس إلى النبي إدريس(عليه السلام)، ويقول الثعالبي: إنه أول من خط الكتاب وخاط الثياب، وإنما كان من قبله يلبسون الجلود، وأما اليونانيين فينسبون صناعة الملابس إلى(عطارد Hermes)[3] وهذا بناء على ما دونته المصادر والتي كتبت إستناداً على جهود وأبحاث علماء الآثار والمؤرخين من خلال الآثار التي عثروا عليها في الكهوف والمدافن والجداريات المنقوشة بالرموز والكتابة الهيروغليفية والعبرية.

وبالإستناد إلى قصة الخطيئة الأولى، نجد أن أول مرحلة لتشكيل الزى كانت أوراق الأشجار ومن ثم جلود الحيوانات من صوف وفراء مروراً بنسيج ألياف النباتات وإنتهاءاً بالخامات الصناعية. وقد كان للبيئة والمناخ أثر هام في تحديد نوعية الخامات. وتدريجياً وبمرور الوقت زادت حاجة الإنسان للإهتمام بما يرتديه من ملابس، وبتطور حياته تطورت الملابس وطرق صناعتها، وأصبح بإمكان أي شخص الحصول على مظهر أفضل يتناسب مع تكوينه الجسدي وطبيعة حياته ودوره فيها. وعلى مدار سنوات التاريخ البشري ظهرت أشكال كثيرة ومتباينة من الأزياء مروراً بالأزياء التاريخية ووصولاً إلى الأشكال الحالية. وقد ساهمت الثقافة في إنتاج العديد من الأزياء ذات الأشكال المتباينة حيث نجد في البلد الواحد العديد من أنماط الملابس المتغيرة إلى جانب الأزياء الشعبية الثابتة المعبرة عن الهوية والقومية. وتعتبر الأزياء من المفردات الثقافية المتجددة والتي يصعب تحديد تاريخ دقيق لبداية نشأتها وكيفية إنتشارها وتطورها أو إنتهائها بتاريخ معين ونسبة

---

[1]/ سورة ص_ الآية(22).

[2]/ منال نجيب العزاوي_ أبجدية فن الأزياء في المسرح_ الأكاديميون للنشر والتوزيع_ الأردن_ 2014م_ ص(5).

[3]/ يحي الجبوري_ الملابس العربية في الشعر الجاهلي_ المكتبة الأدبية_ دار الغرب الإسلامي_ لبنان_ 1989م_ ص(11).

ذلك لشعب من شعوب العالم. ولكن ذلك يصبح ممكناً في تحديد الأزياء التاريخية المميزة والمرتبطة بتاريخ شعب معين لأن التغيرات فيها لا تتشكل بصورة فجائية، وإنما بالتدريج في الشعب الواحد وحتى إن حدث تداخل بين العصر التاريخي السابق واللاحق. وذلك لأن العصر التاريخي يمثل حقبة زمنية تتسلسل الأحداث فيها بنمط حياة ثابت. وبتغير كل عصر تتغير الأزياء المتشابهة تدريجياً مستلهمة النمط الحضاري الجديد.

نتتبع في الجزئية التالية من هذا المبحث الأزياء عبر الحضارات لبيان السمات المميزة للهوية الثقافية للأزياء عبر التاريخ. وتقسيمها في مراحل تاريخية منفصلة بقصد توضيح الإختلاف الذي يحدثه التباين الثقافي على الزي، فمثلاً قد تتفق ملابس شعب ما مع ملابس شعب أخر في الألوان والتفاصيل والزخرفة والثنيات والطول والقصر والضيق والإتساع لكنها تختلف في الأزياء المعبرة عن هويتها الثقافية والمميزة لها بين الشعوب الأخرى والتي قد تختلف أيضاً تبعاً للظروف المتغيرة وشروطها المرحلية من عصر لآخر.

الأزياء المصرية:

صنع قدماء المصريين ملابسهم من التيل الخشن والناعم والشفاف وذلك بحسب طبقات المجتمع. وكانت الخامات الخفيفة والألوان الفاتحة هي السائدة نسبة لطبيعة الجو الحار وبشرة المصريين السمراء. ولبس كل الرجال الزي البدائي(الإزار) وهو عبارة عن شريط يحيط بوسط الجسم ويتدلى طرفه من الأمام. كما لبسوا المجول(Skirt) وهو أكثر طولاً وعرضاً من(الإزار) وكان بثنية كبيرة من الأمام أو ضيقاً من الخلف ومتسعاً من الأمام. وكان الصدر يترك عارياً إلا رئيس الكهنة فإنه يغطيه بجلد النمر. ويثبت المجول بحزام يصنع من الجلد أو المعدن أو القماش.

لبس الملوك والنبلاء الصدار(Tunic) وهو ثوب بسيط يصل إلى الركبة أو القدم بكمين قصيرين ولا يحزم. ولبسوا أيضاً الرداء(Robe) وهو أكثر إتساعاً من الصدرة ويحزم بثنيات من الأمام. إلى جانب الملحف(Shawl) والمجوهرات والشعر المستعار والذي يغطى بقماش مخطط بخطوط عرضية. ولم تختلف الأزياء النسائية كثيراً عن الأزياء الرجالية من حيث النمط الثقافي السائد في تلك الفترة، والذي ينقسم إلى نمطين "النمط الأول ضيق بسيط عديم الثنيات شفاف. أما

النمط الثاني يتميز بالثنيات المتجمعة في الأمام والتي تظهر الجسم من الخلف" [1]. أما النساء فلبسن المجول مع "الحرملة" وهي قطعة قماش مستطيلة توضع على الكتفين تعقد من الخلف وتنسدل بجانبي الصدر ولبسن أيضاً الصدار وهو ثوب ضيق طويل بحمالة أو حمالتين. كما لبسن الرداء الواسع. وصففت النساء شعرهن قصيراً مثل شعر الرجال وأحياناً كن يلبسن الشعر الطويل المستعار وكان يربط برباط أو يغطى بغطاء من القماش المزركش[2]. وتعتبر(الكولة) أهم ما تميزت به الأزياء المصرية القديمة، وهي عبارة عن قطعة مستديرة مسطحة تمتد من نهاية الرقبة إلى الأكتاف والصدر يضاف عليها الخرز والنقوش. أنظر شكل(1).

أزياء بلاد مابين النهرين:

في حضارة بلاد ما بين النهرين(العراق القديم) والشعوب التي عاشت فيها سومر وبابل وأشور كان الرجال بصورة عامة عُراة الصدر يغطون القسم السُفلي من أجسامهم بوزره(تنوره) تغطي الجزء الأسفل وتثبت بحزام غليظ يلف مرة أو ثلاث مرات حولها من الأعلى. وتزين نهاياتها بنقوش هندسية ونباتية أحياناً وهم حفاة الأقدام. بينما لبس الملوك ورجال الدين ثوب طويل له كُم واحد عريض يصل إلى كف اليد اليُسرى ويترك الذراع الأيمن عارياً. وكان الملك يلبس غطاء رأس طويل متدرج بأربعة مدرجات وتخرج من خلف التاج كتلة من الشعر مصفوفة تلف بشريط قصير بالإضافة للشال الذي يلف على الجسم حيث يبدأ من تحت الإبط الأيمن ويلف على الصدر ماراً بالكتف الأيسر والظهر من الخلف ويوضع طرفه الأخر على ساعد اليد اليمنى مكوناً عدة ثنيات وتزين أطرافه بالشراريب. وأستخدم المحاربون الرمح ولبسوا خوذة لتغطية الرأس وعباءة تغطى الظهر وتشد من الأعلى تحت الرقبة ومفتوحة من الأمام. وكان الرجال إما حليقي الرأس أو بشعر طويل فوق قمة الرأس وذوي لحي غزيرة وذقن مضفور طويل حتى الصدر، وكانت الألوان السائدة هي البُني والأزرق والأصفر المائل إلى البُني والأخضر الباهت والأحمر الفاتح المائل إلى البني والألوان الناتجة عن الصبغات المصنوعة من المواد المعدنية والنباتات. تعتبر الحضارة البابلية

---

[1]/ أنظر: سامية إبراهيم وعزة إبراهيم علي_ تاريخ وتطور الملابس عبر العصور_ جامعة الإسكندرية_ مصر_ 1992م_ ص(17،18،29،26).

[2]/ أنظر: نفس المرجع_ ص(26،29).

من أرقى الحضارات وفي عهد الملك حمورابي شهدت البلاد حركة ثقافية نشطة في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية، تأثروا بالحضارة المصرية وأخذوا عنهم(الصدار). وإرتدت النساء عباءة قصيرة عبارة عن قطعة قماش مستطيلة تلف من إحدى طرفيها حول الرقبة وينسدل الطرف الآخر حول الجسم وهي من الأردية الخارجية بالإضافة للشال الكبير المزين بالشراريب. وفي الحضارة الآشورية ظهرت القمصان بأكمام قصيرة، مصبوغة لعامة الناس، وبيضاء مقصورة للكهنة. وإرتدت النساء الثوب الطويل، وفوقه وشاح أو عباءة، أما معطف الملك والكهنة فكان بشراريب طويلة، ويلف على الجسم لولبياً، وعليه حزام عريض فيه خنجر وللنبلاء وزرة بشراريب من الخلف ووشاح. وصفف شعر الرأس إما مستقيم أو مجعد واللحية طويلة ومضفورة، وكان غطاء الرأس إما شبكة أو شريط أو غطاء مصنوع من الجوخ أو الجلد وعلى حافته العليا ريش. ويتزين الجميع بأساور وعقود من الذهب، وتضع النساء الخُمُر على وجوههن، كما لبس العامة صنادل الجلد، ولبس الجنود الحذاء. أنظر شكل(2).

الأزياء الفارسية:

يُعد شعب فارس من الشعوب الأولى التي صنعت الثياب الضيقة بدلاً عن الثياب الواسعة؛ لأنها تناسب عملية الصيد وركوب الخيل، لبس الرجال الصدار وهو عبارة عن ثوب ضيق من التيل أو الصوف أو الجلد بكمين يصلان إلى المعصم. مع سروال ضيق عند الكعب، ولبس الملك والنبلاء من فوقه الرداء الكامل. كان شعر الفرس أقصر قليلاً من شعر الأشوريين وغزير يرتبونه في شكل حلقات صغيرة مستديرة أو طويلة مدببة تتدلى إلى الصدر وكانت الشوارب كثيفة تتصل باللحى وأشتهر الفرس بغطاء الرأس المعروف باسم(الكاب) يشبه التاج، كما إستخدموا غطاء يغطى الذقن والرقبة معاً. لبست النساء مثل ثياب الرجال وأحياناً لبسن الحجاب الطويل. والقميص بكمين ضيقين قصيرين تلبس معه حرملة، أو شال كبير ذو أهداب، ويتدلى طرف هذا المنديل الكبير من الجانب الأيمن من الأمام ويتدلى الطرف الثاني على الجانب الأيسر ومن الخلف [1]. وكان الغالبية منهم حفاة الأقدام وأحياناً كانوا يرتدون الصنادل اللينة المزينة والمرتفعة من الأمام[2]. ونجد أن هنالك عناصر

---

[1]/ سامية إبراهيم لطفي_ تاريخ وتطور الملابس عبر العصور_ مرجع سابق_ ص(33،34).

[2]/ نفس المرجع السابق_ ص(37).

مشتركة بين الأزياء الفارسية وأزياء أوروبا الغربية تتمثل في الصدار وغطاء الرأس القلنسوة والمعطف والسروال. كما لم تعرف الأمم القديمة الأخرى السراويل وإن إستخدمتها قبائل شمالي أوروبا ويشترك الزي الفارسي مع الزى الأشوري في الصدار والملحف ويختلف عنه في قلة أدوات الزينة وقلة إستخدام الأهداب "الشراريب". أنظر شكل(3).

الأزياء الإغريقية:

تميزت الحضارة الإغريقية بالروحانيات وإذدهرت فيها فن العمارة كما إنعكست بعض ملامح ومسميات الأعمدة(الدوري والأيوني) على اللباس الإغريقي. إستخدم الإغريق في صناعة ملابسهم الصوف وقماش التيل والحرير والقطن. وشاع الزي الأيوني للرجال، وهو قطعة مستطيلة من القماش لا يتعدى طولها الركبة، ويرفع الثوب إلى منتصف الفخذين بواسطة حزام ثم يثبت فوق الكتف بمشبك، أو يعقد فوق الكتف. ويترك الصدر والذراع اليُمنى عاريين، وقد يكون للثوب الأيوني كُمانّ ويحلى "بكنار" مزين برسوم إغريقية. وكان رجال الطبقات العليا يرتدون عباءة من الصوف السميك الخشن أو الجوخ، كما إرتداها الفلاحون في حالة البرد الشديد. وقد صنع الإغريق شريطاً أو شبكة حول الرأس من أعلى الجبهة، وزينوا شعورهم بتاج من الزهور. كما صنعوا الصنادل المستوية المريحة إلى جانب الأحذية ذات الرقبة الطويلة. ولبست النساء الرداء الدوري وهو قطعة مستطيلة من الصوف ذات كنار تثنى حافته العليا، ويلبس بدون حزام، ويثبت الطرف الأمامي على الخلفي بمشبك فوق الكتف. وكن يلبسن الثوب الأيوني كزي داخلي ويغطين رؤوسهن بالطرف الأعلى للثوب الخارجي(الدوري) كما لبسن الصنادل وإستخدمن المروحة والمظلة والقبعة المصنوعة من الخوص وتزين بالمجوهرات البسيطة[1]. أنظر شكل(4).

وقد تأثرت الأزياء الرومانية كثيراً بملابس الإغريق من حيث البساطة والحشمة تأثراً بالعقيدة المسيحية والتي إنعكست على الفن الإغريقي والروماني. بينما إختلفت عنها في الخامات الثقيلة والأكثر فخامة والعباءات الأكثر إتساعاً والإضافات الزخرفية الكثيفة، وأبتكر الرومان زي وطني خاص ومميز لشعب الرومان إرتداه الملوك والحكام وعامة الشعب والشباب من الجنسين وكذلك موظفي الدولة والكهنة أسموه الطوجة(toga) وهي عبارة عن عباءة خارجية تلفّ حول الجسم تحت

[1]/ أنظر: سامية إبراهيم لطفي_ تاريخ وتطور الملابس عبر العصور_ مرجع سابق_ ص(40_52).

الذراع الأيمن ومن فوق الكتف اليسرى، وهي أرجوانية اللون للإمبراطور، وبيضاء للأثرياء، ومن الصوف للعامة، إرتداها قادة الرومان في كل المناسبات التي إنتصروا فيها، والطوجة تشير إلى العزة والكبرياء والقوة وتعلي من شأن مرتديها[1].

أهمية الخصائص المميزة للأزياء في الحضارات القديمة:

بناءاً على ما تم ذكره في الجزئية السابقة من هذا المبحث يرى الباحث أن للأزياء خصائص مُميزة لا يمكن تجاهلها في حال أردنا محاكتها من خلال الفنون المختلفة من دراما ونحت وتصوير..الخ (فالكولة) وحدها لا تكفي للتعبير عن الزي المصري دون الإهتمام بهوية مرتديها ونسبته إلى فئة أو طبقة محددة. وأن الزي المصري مثلما يعبر عن هوية الشعب لا بد وأن يحدد موقع الفرد داخل مجتمعه ونسبته مثلاً إلى عامة الشعب أو من علية القوم أو الأسرة الحاكمة. حيث كان لكل فئة أزياء خاصة بها ومميزة لها من ناحية التصميم والخامة.

وعليه يرى الباحث أيضاً أنه من الضروري معرفة ودراسة تاريخ الأزياء في الحضارات القديمة للعاملين في المجال الدرامي والفنون البصرية كونها تفيد في معرفة أشكال وأسس تصميمها كما يمكنها أن تصبح مصدر إلهام لإبتكار تصاميم حديثة. وذلك نسبة إلى الأهمية التي إكتسبتها الأزياء منذ قديم الزمان كمظهر ثقافي ينعكس من خلاله إهتمام الشعوب القديمة بالفنون ومقومات الحضارة. وقد كانت الأزياء خير معبر عن الفكر والثقافة. وكان الإهتمام بالنواحي الفنية والجمالية بقصد تمييز هوية مرتديها داخل الحضارة الواحدة وخارجها. ومثلما إختلف الإنسان الإغريقي عن الأشوري والمصري من حيث اللغة والثقافة وأسلوب حياته في عمومها نجده أيضاً قد إختلف داخل مجتمعه حيث تشكلت أزياءه بحسب الهوية الإجتماعية أو الثقافية أو السياسية أو الدينية التي ينتمي إليها. وقد ساهمت الأزياء في هذا الإتجاه مساهمة ملحوظة فبمجرد النظر إلى هيئة الشخص نعرف الكثير من المعلومات عنه ولهذا يحتاج تصوير التاريخ بصفة خاصة من خلال الشخصيات والأحداث معرفة التاريخ من مصادره المرجعية وذلك للحصول على أكبر قدر من الصدق الفني وخلق جو من الواقعية التاريخية لا يظهر تقليدها أو صناعتها حديثاً.

---

[1]/ أنظر: نفس المرجع السابق_ ص(53).

المبحث الثالث

الأزياء في السودان

تمهيد:

في حضارات الشعوب القديمة كان لكل بلد زي تقليدي متعارف عليه يعبر عن ثقافة الشعب وتاريخه يميز هوية أفراده وإنتماءاتهم. وكانت تصمم أزياء الملوك والطبقات الحاكمة بمكملاتها لتعبر عن القوة والعظمة، وبألوان محددة وخامات يمنع على العامة إرتدائها وذلك بغرض التمييز وحفاظاً على رموز ودلالات الأزياء ومكانة كل شخص. ولكن في القرن الواحد والعشرون ألغيت كل هذه الفوارق وأصبحت الفئات الحاكمة ترتدي الملابس البسيطة من دون تكلف خاصة في المدن؛ مع ضرورة المحافظة على بعض التقاليد الخاصة مثل إرتداء الأزياء الشعبية والتراثية أثناء المراسم أو الإحتفالات. وكذلك حال الأزياء في السودان والذي يختلف اليوم عن ما كان عليه منذ قديم الزمان حيث لم تكن هنالك الحدود المعلومة والتي تقسم أرضه إلى شرق وغرب وجنوب وشمال ووسط والتي تغيرت مرة أخرى بإنفصال الجنوب ليصبح دولة مستقلة عن كل هذه الأجزاء. وعلى ذلك إكتسبت الأزياء سماتها الثقافية كما شهدت العديد من التحولات نتتبعها في هذا المبحث.

1. الأزياء السودانية في العصور القديمة:

لم تكن الحدود الجغرافية للسودان القديم معلومة كما هو عليه الحال الآن وكانت أكثر الحدود القديمة وضوحاً هو الحد الشمالي مع مصر. ومن الناحية التاريخية يعتبر إقليم وادي النيل مهد الحضارات السودانية القديمة[1]. وقد كان لمناخ هذه المنطقة وإختلاط الأعراق والثقافات أثره في تشكيل الأزياء السودانية مما أكسبها عبر التاريخ سمات مشتركة مع أزياء الحضارة المصرية والرومانية والأشورية القديمة وبناء على ذلك كانت الأزياء السودانية السائدة في العصور القديمة وقبل العصر المسيحي(كرمة، نبتة، مروي، المجموعة المجهولة)، آنذاك لا تختلف كثيراً عن الأزياء في الحضارات الأخرى وإن كانت قريبة الشبه بالأزياء المصرية القديمة، فكان الزي يتألف من المجول(التنوره) والصدرة(القميص) والرداء والشال أما العبيد فكانوا عراة الجسم من أعلى وأكتفوا

[1]/ سامية بشير دفع الله_ تاريخ الحضارات السودانية القديمة_ كلية الأدآب جامعة الخرطوم_ 1999م_ ص(1).

بلبس المجول في الوسط[1]. كما كانت الأزياء الخاصة بالنساء والرجال كانت في أبسط صورها عبارة عن نوعين إما تنوره قصيرة أو طويلة وصدار طويل ويضاف إلى هذين النوعين حزام من الوسط بالإضافة إلى الحُلي والزينة و(الكولة) والتاج بالنسبة للملوك. ويعتبر(المجول) من الأزياء المفضلة لقدماء السودانيين حيث لبسه كل أفراد الشعب السوداني مع تفاوت الخامات. وكانت الخامات الشفافة الناعمة للملوك والنبلاء أما الخامات الخشنة للعبيد والعامة والذين يلبسون المجول والصدار من دون أي إضافات أخرى. ولبس الجنود مجول قصير مع صدار ضيق من أعلى يشبك عند الكتفين ويلبس المجول من فوقه ومن ثم يثبت بالحزام عند الوسط لحمل السلاح أنظر شكل(5) كما لبس الكهنة أيضاً المجول بطول يصل إلى القدم ويثبت على الكتف الأيسر ويحزم من الوسط بحزام مع إضافة شال من جلد النمر. أنظر شكل(6). ولبس الملوك المجول مع إضافة جلد النمر والتاج. وإلى جانب ذلك لبسوا أيضاً ثوب بسيط(قميص) من التيل له كمان قصيران، وهو طويل يصل إلى القدم ويحزم في الوسط أنظر شكل(7) كما لبسوا أيضاً المجول المثبت بشريط يلف حول الكتف، أو عباءة مستديرة وتكمل هذه الأزياء بالوشاح واللحية المستعارة، وحزام في الوسط يتدلى من الخلف منه ذيل طويل. وكانوا يحملون في اليد اليمني صولجاناً يعلوه رأس الإله ست، وفي اليد اليسرى رمز الحياة. وكانوا إما حفاة الأقدام أو يلبسون نعل خفيفاً ذو سيرين[2]. ولبسوا أيضاً أغطية رأس وتيجان شبيهه بنظرائهم المصريين وكان أيضاً لملوك كوش ونبته أنواع أخرى من ألبسة الرأس إرتبطت بهم كسودانيين وصارت تميزهم عن غيرهم ومنها تاج الطاقية(skull cap) وهو تاج يلبس في مناسبات التتويج ويتكون من جزأين الجزء الأول عبارة عن طاقية تغطي الرأس بإحكام وتنزل إلي الجبين ولها لسانان صغيران يلتفان من أمام الأذن، أما الجزء الثاني فهو شريط عريض يلبس علي الجبهة ويربط طرفاه من الخلف ومن ثم يتدليان علي الكتف ويزخرف أحياناً بصف من الأفاعي في الجزء الأمامي من العصابة. أما الملوك المصريين فقد كانوا يلبسون التيجان التقليدية مثل التاج الأحمر الذي يمثل مصر السُفلى، والتاج الأبيض الذي يمثل مصر العليا إلى جانب التاج الأزرق. وقد كان

---

[1]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ المركز الطباعي_ السودان_ مرجع سابق_ ص(62).

[2]/ سامية بشير دفع الله_ تاريخ مملكة كوش(نبتة ومروي)_ دار الأشقاء للطباعة والنشر_ الخرطوم_ 2005م_ ص(158).

ملوك الأسرة الخامسة والعشرين يضعون ثعابين من الكوبرا علي رؤوسهم أحدهما بارز يمثل مصر وآخر إلى جانبه يمثل بلاد كوش بينما كان الملك المصري يضع ثعباناً واحداً[1]. ولم تختلف أزياء النساء كثيراً عن الأزياء الرجالية فقد لبست النساء المجول وهو عبارة عن قطعة مستقيمة من القماش مثبتة بشريط يلف حول الوسط، و يتدلى طرفها من الأمام إلى أسفل الركبة، ويلبس معه غطاء للأكتاف(كولة) أنظر شكل(8). كما إرتدت النساء زي آخر ولكنه أكثر ضيقاً يغطي كامل الجسد ويصل إلى أسفل القدم عبارة عن صدار بحمالات وكان يتم تزيين الأزياء بالخرز إضافة إلي الحلي التي تكمل الزي والتي يلبسها الرجال والنساء[2]. وقد فضلت المرأة السودانية الصدار كما أضافت للنوع الأول ذي(الحمالات) الشال من فوقه وأحياناً لبسته بشكل دائري يشبه(الحرملة) المصرية وكان الصدار إما ضيق من دون حزام أو واسع تحزمه من الوسط بشريط طويل رفيع. وفي فترة لاحقة عرفت المرأة السودانية الثوب وكانت تلبسه بلفه حول الجسم على أن يتم تثبيته عند أعلى الوسط بإحكام ويمر أسفل الصدر الأيمن لينتهي عند الكتف الأيسر ويتدلى ما تبقى منه في الخلف أنظر شكل(9). ويعتقد الباحث أن هذا الزي كان يميز المرأة الشمالية عن نظيرتها في الجنوب والتي إستلهمت فيما بعد منه اللاووه وكانت هذه بدايات ظهور وتبلور السمات السودانية على الأزياء وسيتم تناول هذا بالتفصيل في جزئية لآحقه من هذا المبحث.

2.الأزياء السودانية في العصر المسيحي:

كانت الأزياء في العصر المسيحي في السودان بصفة عامة من حيث تصميمها تتسم بالطول والأتساع، فكانت واسعة تغطي كافة أجزاء الجسم من مرفقي اليدين حتى كعبي القدمين، إرتدت النساء ثوباً فوق الرداء، كما إرتدى الرجال عباءة مفتوحة من الأمام فوق الجلباب وهذه الأزياء لبسها أيضا الأمراء والملوك وكل الذين يمثلون السلطة الدينية أنذآك أنظر شكل(10). وتميزت الأزياء كافة بالألوان الزاهية البراقة، كما زخرفت ملابس الرجال وأغطية الرأس بخطوط ملونة بنية على خلفية بيضاء أنظر شكل(11) أما أزياء النساء فكانت تميل قليلاً إلى اللون البني الغامق

---

[1]/ أنظر: عايدة محمد على_ الماكياج في الحضارات السودانية القديمة_ رسالة دكتوراه غير منشورة_ مكتبة كلية الموسيقى والدراما_ جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا_ 2010م_ ص(163).

[2]/ أنظر: نفس المرجع السابق_ ص(287).

كما زخرفت بألوان فاتحة إستخدموا في زخرفتها الأشكال الهندسية والنجوم والورود، وكانت توضع على شكل أشرطة ومثلثات أنظر شكل(12)، ومثّل الصليب في العصر المسيحي شكل من أشكال الزينة حيث نجده متدلياً من العنق على الصدر فوق الرداء أو ممسكاً به أو مرسوماً على الجبهة أو يعلو على الرأس بشكل تاج. ولبس الملوك على رؤوسهم تيجان بسيطة تشبه الطاقية لها قرنان يتدلى من القرنين أجراس ويعلوها هلال تحته نجمة داؤود. وإستمرت الطاقية ذات القرنين رمزاً للسلطة لدى ملوك سنار فقد إرتدوها عوضاً عن التاج أيضاً بما يتوافق مع الحس الإسلامي الذي يتطلب التواضع والبعد عن السلطة ورموزها[1] أنظر شكل(13). ويشير ظهور الهلال فوق نجمة داؤود في هذه الفترة إلى إزدياد الإنتشار الإسلامي وبداية تغلغل الإسلام ببنية الدولة المسيحية توطئة إلى التحول النهائي إلى الإسلام، والذي أخذ صورة تدريجية في الشمال وأكتمل عقب القضاء على الممالك المسيحية(المقرة وعلوة) وقامت على إثرها ممالك إسلامية ذات ملامح عربية إفريقية وهي مملكة الفونج وسلطنة الفور وهي فترات شهدت البلاد فيها تحولات سياسية وإجتماعية وثقافية.

3.الأزياء السودانية في العصر الإسلامي:

(أ) مملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء (1504_1821م):

كان لدخول العرب إلى السودان في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر أثره في إنتشار الإسلام والدم العربي وتمازج الثقافة والأجناس العربية مع الأفريقية. وتعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل تبلور الهوية الثقافية السودانية وبروز السمات العربية والأفريقية في مكونات الشخصية السودانية وهذا إنعكس على الأزياء الرجالية والنسائية في سلطنة سنار والفور حيث تميزت بالأناقة والمظهر الإسلامي المُرتب المتكامل الهيئة، وأنتشرت الجلابية والسراويل الواسعة وحزام الوسط العريض والعباءة الخارجية والعمامة. وقد لبس السلاطين وقادة الجيش الجلابية أقصر بقليل وأضيق مع خوذة في الرأس ودرع على الصدر كما حملوا الحربة ودرقة من النحاس. ولبس الأعيان أيضاً الجلابية والعباءة مضافاً إليها العمامة والشال أنظر شكل(14) بينما لبس العامة الجلابية مع الحزام في الوسط أنظر شكل(15).

---

[1]/ أنظر: صلاح عمر الصادق_ دراسات سودانية في الآثار والفلكلور والتاريخ_ دار عزة للنشر والتوزيع_ الخرطوم_ 2006م_ ص(62).

(ب) سلطنة الفور(1640_1874):

كانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الأرض كلها ولا تدفع جزية لأحد، ما عدا الحرمين الشريفين فإنها كانت تخدمهم بمحمل وصره كل سنة، وكان موكب المحمل يأتي إلى مصر ومعه الريش والسن والصمغ..الخ، فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة، ثم يتابع الحج إلى الحرمين مع الموكب المصري. وكانت أزياء الحرس ومرافقي المحمل موحدة تماماً في شكل تفصيلها، وتتكون من أربع قطع رئيسية وهي: قميص ذو كمين يتدلى حتى الركبة. وعليه ثوب من القماش مستطيل يُلف حول الوسط عند الخصر وتعلق إحدى نهايته على الكتف، وأحياناً يربط الثوب بقطعة قماش سوداء. ويلبس أسفل القميص سروال طويل يغطي أخمص القدمين، كما ينتعل الحراس نعلاً ذا سيور(شبشب)، ويغطى الرأس بعمامة متوسطة الطول تلف حول الرأس وينسدل طرفها الأيسر على الكتف. وهذا الزي الذي يرتديه الحرس ومرافقوا المحمل مشابه تماماً لزي أعيان الفاشر وحاشية على دينار وأن زاد بوجود عباءة وأحزمة سوداء عريضة حول الوسط عند بعض الأعيان مما أعطى تبايناً جميلاً ما بين الأسود والأبيض. وتعتبر المسبحة هي الزينة الدينية المحبوبة لدى الفور ونجدها متدلية من أعناق كافة أعضاء الحرس ومرافقي المحمل كما كان يلبسها قائد المحمل والأعيان[1]

وحظيت الأسلحة بالإهتمام كمكمل للزينة أيضاً فنجد البندقية وحزامها والسيف وجرابه الذي يربط بأشرطة حول الوسط، والتزين بالسلاح يرتبط بقيم الشجاعة والرجولة والإستعداد والجهاد وهو أعظم قيمة عند الفور والسودانيين عامة. وفي تلك الفترات تكون زي ممثل السلطان قائد المحمل من نفس القطع السابقة وتميز عنهم بلبس عباءة بها أشرطة سوداء حول أطرافها، كما ينتعل الخف السلطاني المشهور ذو الطرف الأمامي المدبب، ويحمل أيضاً عصا وهي رمز للسيادة. تميزت كل الأزياء باللون الأبيض ولا يوجد لون أخر ماعدا في بعض الأشرطة وأحزمة القماش السوداء عند بعضهم، ونشير إلى تفضيل اللون الأبيض والأسود، كما أن الدابة التي يمتطيها قائد المحمل بيضاء اللون مما يعطي الموكب توافقاً هارمونياً يبث تأثيراً نفسياً مهيباً أنظر شكل(16). ولبست النساء المحيطات بالموكب نفس الأزياء السائدة في كافة أواسط وغرب السودان والتي تتكون من الجلباب

[1]/ أنظر: نفس المرجع السابق_ ص(62).

والثوب، أما الشابات فلبسن الجلباب ووشاحاً يغطي الرأس والصدر[1] ويتشابه الزي في سلطنة الفور ومملكة سنار مع الزي العربي الإسلامي في الحشمة والفخامة والألوان الهادئة. وبدخول الأتراك السودان في العام 1820م، لبس الكثير من السودانيين الطربوش(غطاء رأس تركي أحمر اللون على شكل مخروط ناقص تتدلى من جانبه خيوط سوداء) ولبسه الفقهاء وعلماء الدين، وأصبح جزء من أزياء موظفي الدولة كما ظل شائعاً حتى بعد أن أخرجت جيوش المهدية الأتراك من السودان. وكان لباس(الأفندية) في الثقافة السودانية وقد لبسه أيضاً ثوار حركة 1924م، والتي أدت إلى إجلاء القوات المصرية من السودان، وإنفراد بريطانيا بحكم السودان. وأستمر لبس الطربوش لفترات طويلة، حتى العام 1956م وأنحصر لبسه كإكسسوار عند النساء في حلقات الزار عندما تتقمص إحداهن شخصية رجل تركي.

4. تطور الأزياء السودانية:

أولاً: الأزياء النسائية:

بدأ تطور الأزياء النسائية عموماً بقطع ملابس شبيهة بما ترتديه النساء اليوم من الناحية الوظيفية غير أنها إختلفت من حيث التصميم والخامات. والمتتبع للأزياء النسائية السودانية القديمة يُلاحظ تأثير الثقافة السائدة في ذلك الوقت وأنعكاسها على مظهر الأزياء، والتي أباحت أنماطاً لا تتعارض مع القيم والتقاليد والعادات السائدة آنذاك إذ غابت المفاهيم التي تحدد مناطق العورة فكانت الفتيات يظهرن وهن مكشوفات الصدر، وقد أكتفين بتغطية منطقة الوسط دون سائر الجسد. وكان لدخول الإسلام السودان في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر أثره الكبير في إنتشار الثقافة العربية والإسلامية إلى جانب الثقافة الإفريقية السائدة وعلى إثر ذلك تغيرت العديد من الأنماط في الملابس وطرق إرتدائها في المجتمعات السودانية. لبست الفتيات السودانيات قديماً الكَنْفُوس. ويعتبر من الأزياء الداخلية(Under wear) ويلبس لستر منطقة العورة وهو عبارة عن(قطعة من القماش مستطيلة الشكل يبلغ طولها حوالي55سم وعرضها حوالي10سم تلبس لتغطية منطقة الوسط من الأمام والخلف وتربط بشريط عند الوسط)[2] أنظر شكل(17) كما لبست أيضاً زي

---

[1]/ نفس المرجع السابق_ ص(63).

[2]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(100).

آخر بسيط يغطي أسفل الجسم ولا يتعدى طوله الركبة يسمى الرحط وهو عبارة عن إزار يصنع من سيور الجلد الناعم تُربّطُ على سيورٍ جلدية أقوى منها تحيط بخصر الفتاة أنظر شكل(18) وذات الرحط لبسته فتيات جنوب السودان أقصر طولاً وأحياناً عند منطقة الوسط فقط وهو أشبه بالحزام ينسج بالخرز ويستبدل بعد الزواج(بالقُرباب) وهو قطعة مستطيلة عرضها حوالي مترين تلف حول الخصر ويتم تثبيتها على الوسط بعد ثنيها عدة ثنيات أنظر شكل(19).

وحتى عشرينيات القرن التاسع عشر كان هذا التحول في الزي يتم بعد رقصة العروس حين يقوم العريس بنزع سيور الرحط فتتناثر خيوط الرحط معلنة بداية مرحلة جديدة في حياة الفتاة[1] وتطور القرباب فيما بعد إلى التنورة والتي إختلفت عن الأول كونها تلبس دون لف حيث أنها مثبتة بالحياكة أنظر شكل(20). وإلى جانب ذلك إرتدت تصميم آخر عرف(بالقرِن) وصفه(بوركهارت) عام 1928م بأنه أحمر اللون ذو خطوط بيضاء ويلبس عليه زي خارجي يسمى الثوب كانت خامته قديما من الدمور ثم أستبدلت إلى الدبلان والشاش والقطن المستجلب من إنجلترا[2]. وفي مرحلة لاحقة أضيفت إلى التنورة قطعة متصلة لتغطية الصدر ذات فتحة لإدخال الرقبة ولها أكمام طويلة أو قصيرة أو متوسطة الطول وسُمي هذا الزي بالفستان لبسته المرأة في مختلف مراحلها العمرية، وهو من الأزياء الخارجية حيث أنها ترتدي من أسفله الكنفوس والقرباب. صُمم الفستان بقطعة واحدة كما صُمم بقطعتين منفصلتين مع تجميع القماش عند الوسط كما إختلفت ألوانه وخاماته وشكل الأكمام وفتحة الرقبة. وإلى جانب الفستان كانت ما تزال المرأة السودانية تلبس نصف الثوب وهو أطول من القُرباب قليلاً وكانت تلبسه بطريقة القرباب وكان يلف عند الوسط مع تغطية الرأس وترك الصدر مكشوفاً أنظر صورة رقم(21). ولبسته أيضاً أعلى الصدر مع لفه مرة واحدة وربطه عند الكتف وسمي عند نساء جنوب السودان باللاووه. وزاد طول الثوب أكثر وأصبح يلف على مرتين عند الوسط ويغطى الرأس والأكتاف فقط دون الصدر أنظر شكل(22) كما لُبس ذات الثوب بإحكام أعلى الصدر أنظر شكل(23). وقد مر الثوب السوداني كغيره من الأزياء الأخرى بمراحل مختلفة ليصبح على ما عليه الآن من حيث الطول وطريقة اللبس ونوع الأقمشة. والمتتبع لتاريخ الثوب السوداني

1/ أنظر: جريزلدا الطيب_ أداء المرأة السودانية في صناعة الأزياء السودانية_ https://goo.gl/YFFW12

2/ زينب عبد الله_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(65).

يلاحظ أنه(لم يختلف كثيراً عن الأردية والثياب الخارجية التي كانت تلبسها النساء قديماً في حالة الخروج أو في المناسبات التي إرتبطت بالنبلاء والملوك ولهذا يعتبر الثوب بشكله الحالي تطوراً لتلك الأردية التي صاحبت النساء في الحضارات القديمة)[1].

ويرى الباحث من خلال الملاحظة وتتبع مراحل تطور الأزياء النسائية أن القرباب هو مصدر تطور هذه الأزياء حيث أُستلهم منه التنورة والجونلة(وهي إسكيرت داخلي يصنع عادة من قماش قطني خفيف) وأيضاً أُستلهم منه الثوب السوداني أنظر شكل(19،20،21،22). وإلى جانب ثوب الدمور والدبلان عرفت المرأة السودانية نوع آخر من الثياب عند نهاية القرن الثامن عشر الميلادي في عهد حكم الخديوية وهو ثوب أزرق اللون يسمى(الزَّرَاق) مصبوغ بنبات(النيلة) وكان قليل الثمن مما حفز النساء على إقتناءه وإرتداءه بكثرة وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت تلبس المرأة ثوبين فقط الأبيض للمناسبات الخاصة(الأفراح، والأتراح) والأزرق لأيامها العادية.

ولما جاءت حركة الإمام المهدي الإصلاحية في القرن التاسع عشر حرَّمت كلَّ الأزياء التركية وأرغمت كلَّ النساء على لبس الثوب فكن يلبسنه بصورة أكثر حشمة وستراً أنظر شكل(24،25). وعند نهاية القرن التاسع عشر لبست النساء ثوب(الفُوَال) وهو ثوب مصنوع من القطن أو الحرير الشفاف الملون بدرجات هادئة كان يتم إستيراده من مانشستر ويعتبر ثوب(أبو قجيجة) والذي يختلف عن(الفُوَال) كونه سميك الخامة وعليه حبيبات من القطن بارزة من أفضل أنواع الثياب. ولزيادة عرض الثوب كان يقطع الثوب ذي التسعة أمتار إلى نصفين، طول كل جزء أربعة أمتار ونصف المتر، ومن ثم يتم وصل طوليهما بدرزة واحدة وسطية بالعمل اليدوي وإضافة زينة للأطراف بخيوط(الكروشيه) والتي تجعله أثقل وزناً وأكثر ثباتاً في الكتف[2]. وكان للنساء المتعلمات دور كبير في تغيير الأزياء القديمة حيث لبسن الأزياء المستوردة إلى جانب المحلية فتغيرت الأشكال والمسميات الخاصة بالملابس حيث أصبح لفظ الإسكيرت يشير إلى التنورة والفستان يشير إلى الجلباب أو العراقي. بجانب الثوب والذي يعتبر زي خارجي تلبس المرأة تحته الفستان أو الإسكيرت وفي عهد الحكم الثنائي الإنجليزي المصري الذي بدأ عقب إنتهاء حكم الدولة

---

[1]/ زينب عبد الله_ نفس المرجع السابق_ ص(106).

[2]/ أنظر: جريزلدا الطيب_ أداء المرأة السودانية في صناعة الأزياء السودانية_ مرجع سابق.

المهدية حدث تغيير في البيئة الإقتصادية والإجتماعية، وتأثرت الأزياء النسائية على إثره بالعديد من المظاهر الثقافية الوافدة وأنعكس هذا في إهتمام المرأة السودانية بما ترتديه من ملابس.

وشهدت مرحلة ما بعد الإستقلال إزدياد في عدد العاملات بالمصالح الحكومية وذلك نسبة لنمو القطاعات الخدمية والإنتاجية والتي وفرت فرص لعمل المرأة . وفي هذا الإتجاه برزت ثلاثة تيارات فكرية نسائية تسلط الضوء على الإهتمام بالمظهر النسائي فكانت الأولى تدعو للإهتمام بالمظهر وفق الحجاب والحشمة، أما الثانية فدعت إلى نزع الثوب وإتباع الموضة الأوربية، كما إتسمت الثالثة بإحترام التقاليد دون تشدد وكانت هذه الإتجاهات على نطاق المدن الكبيرة والتي تعتبر متحضرة أما في المناطق الأخرى من السودان فقد ظلت الأزياء النسائية دون تغيير[1].

وفي مطلع القرن العشرين أخذت أكثر نساء الحضر في لبس الفساتين المفصَّلة وكنَّ قد تعلَّمن فن القصّ والخياطة من النساء القبطيات واليونانيات والآرمنيات اللائي تدفقن إلى داخل السودان لاحقاتٍ بأزواجهنّ في أعقاب جيش(كتشنر) والاستقرار تحت مظلة الحكم الثنائي. ونسبة لخروج المرأة للدراسة والعمل لبست الفتيات الفستان ومعه طرحة كما لبست أيضاً الإسكيرت والبلوزة إلى جانب الثوب. تطورت أزياء المرأة في جنوب السودان متخذه أشكال قريبة الشبه بأزياء مناطق السودان الأخرى مثل(اللاووه)، والذي يعتبر مرادف للثوب السوداني كما أصبح يصنع من ذات الخامات. ومنذ دخول التعليم إلى المناطق الجنوبية تلاحظ تأثر النساء بالأزياء الأوربية كثيراً حيث إرتدت النساء الجنوبيات الملابس الإفرنجية المكونة من البدلة والقميص والبنطلون. أما من حيث الخامات فقد أُستجلبت الأقمشة القطنية من إنجلترا والحرير الصناعي من الهند إلى جانب الدمور المحلي المصنع في سنار[2]. ولبسن فيما بعد إلى جانب اللاووه الإسكيرت والبلوزة والفساتين المصنوعة من قماش الدمورية والدبلان والمصبوغة بالعديد من الألوان أنظر شكل(26،27). وفي غرب السودان إرتدت المرأة الفستان المصنوع من قماش الدمور إلى جانب ثوب (الزَّرَاق) ولبست عند الزواج قُرباب من الحرير الملون يسمى(القرمصيص) ولبست في أيامها العادية نوع آخر من

---

[1]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(66).

[2]/ نفس المرجع السابق_ ص(64).

القُرباب أبيض اللون يسمى(الحمام طار)[1] ولم تختلف أزياء المرأة في الغرب عن ما تلبسه المرأة في وسط السودان إلا أن الأولى تفضل الألوان الصارخة وتلبسها دون حرج في كل الأوقات ومؤخراً يمكن القول أنها أصبحت ترتدي ألوان أكثر حدة نوعاً ما عن السابق أنظر شكل(28). وفي شرق السودان لبست المرأة التنورة والصديري أو القُرباب والفستان كما لبست الثوب السوداني المعروف وتميزت بنوع آخر يبلغ طوله حوالي أربعة أمتار ونصف وعرضه متر ونصف وطوله ضعف طول الثوب العادي ويزيد في عرضه عنه ويسمى(بالفوطة) يصنع من الحرير وله كنار منسوج ملون أنظر شكل(29) ويلبس بثنيه إلى نصفين بعد ضم(الفتقتين) مع بعضهما البعض بواسطة الحياكة وتفضل نساء البجا الثوب ذو الفتقتين على النوع الأول لأنه يساعد في لفه بالطريقة التي تميز المرأة وهي طريقة (الكرْبه)[2]_ أي أن يربط الثوب حول خصر المرأة بدلاً من الكتف(وأحياناً يلف في الوجه ويغطي الجزء الأسفل منه وتسمى هذه الطريقة "بالبُلاَّمه" أو "البلَّيمه")[3]. ونجد في شرق السودان وتحديداً عند قبيلة الرشايدة ذات الأصول العربية نوع مميز من الأزياء النسائية وهو عبارة عن جلباب واسع يصنع من قماش القطن باللون الأسود ويزين باللون الأحمر أو الأخضر من نفس القماش. وحديثاً أصبح يصنع من قماش الجورسيه ويزين بألوان مختلفة منه. وتختلف طريقة زخرفته من ثوب لآخر وذلك بتثبيت أشكال مختلفة من الأشرطة المنسوجة من الوسط وحتى ذيل الثوب. ويتكون الكم من مستطيل يطوى عرضياً فيصبح مربع الشكل بحيث يكون نصفه للأمام ونصفه الآخر للخلف، وبهذا يصبح الكم وكأنه كم قصير. ويثبت بين تلك الأشرطة قطع مثلثة من اللون الأحمر أو الأخضر. أما الجهة الداخلية للكم يتم زخرفتها بمثلثات صغيرة ومتجاورة من النسيج وحين ترفع المرأة طرف الكم أعلى الرأس تظهر الزخارف المثبتة في باطن الكم. وكانت تغطي الوجه بلبس قناع من قماش القطيفة أو القطن الأسود يثبت بشريط جانبي الوجه ليكون بمثابة اللثام يغطي نصف الوجه. يزخرف القناع بخرز الرصاص بأشكال مختلفة كما يستخدم النسيج في تزيين أطراف القناع. وفي الوقت الحالي أتبعت طرق أخرى

---

[1]/ نفس المرجع السابق_ ص(69).

[2]/ زينب عبد الله محمد صالح _ الزي والزينة عند قبائل البجا_ المركز الطباعي_ السودان_ 2008م_ ص(86).

[3]/ نفس المرجع السابق_ ص(88).

في الزخرفة وذلك بإضافة كلف جاهزة بألوان مختلفة مثل الأحمر، والأصفر، والأخضر، والفضي والذهبي. تثبت في صفوف متتالية بالتبادل مع الأشرطة الملونة المضافة. وتلبس أيضاً البرقع المصنوع من قماش القطيفة الأحمر أو اللون الأسود، والذي يغطي الرأس والوجه معاً مع ترك فتحة لإظهار العينين ويزين البرقع بتثبيت أشرطة متجاورة جاهزة من اللون الفضي والذهبي على أطراف البرقع. بحيث تغطي معظم أرضية البرقع. كما تستخدم الزخرفة المنسوجة في تزيين طرف البرقع. ثم ينهى الطرف بإضافة مجموعة من الكتل من الخيوط القطنية من ألوان متعددة كالأخضر والبرتقالي والأحمر والكحلي. أيضاً تثبت مجموعة من القطع النقدية تبعاً للحالة المادية. ونظراً لثقل البرقع؛ يثبت في الركنين العلويين للبرقع سيرين من الجلد لتثبيته على الرأس من الخلف. كما يثبت سيرين آخرين في ثلثي الطرف العلوي للبرقع ويربطان أعلى الرأس[1]. أنظر شكل(30)

وفي شمال السودان أيضاً نلاحظ تأثُر الإقليم النوبي بالثقافة العربية والإسلامية ونتج عن ذلك زي حلفا الفضفاض والذي يسمى(الجرجار) وهو زي نسائي عبارة عن عباءة فضفاضة سوداء اللون ذات أكمام طويلة واسعة ويصل طولها إلى القدم وتلبس معه طرحة كبيرة صفراء اللون، وهو من الأزياء المميزة للمرأة في شمال السودان أنظر شكل(31) وقد عبرت الأزياء عن الهوية الثقافية للمرأة السودانية حتى على المستوي المحلي حيث تميزت المرأة السودانية في شمال السودان بالجرجار بينما تميزت باللاووه في الجنوب وبالفوطة في الشرق وفي الغرب تميزت بالثياب ذات الألوان الساخنة. أما على المستوي العالمي تميزت المرأة السودانية دون سواها بالثوب السوداني ويعتبر رمز للستر والحشمة، وهو الزي القومي المميز لها، إهتمت بصناعته الهند وسويسرا ودول الخليج وصنع من القطن والحرير والبولستر والشيفون، والتوتل المطبوع والمطرز. وتطورت أشكاله ليصبح ملائماً لكل الأوقات والمناسبات، فأصبح هنالك ثوب يلبس في المنزل والأحياء القريبة مثل ثوب البوليستر أو الهزاز ويفضل الأخير كونه من الأقمشة الباردة والتي تلاءم الأجواء السودانية الحارة، وتلبس المرأة عند ذهابها للعمل الثوب الأبيض المصنوع غالباً من قماش التوتال والمزين بألوان هادئة سواء كان مشغولاً بالتطريز أو الطباعة الملونة وتكمله ببعض الحلي والزينة

2/ ليلى عبد الغفار فدا_ الملابس التقليدية لنساء قبيلة الرشايدة_ الثقافة الشعبية مجلة فصلية علمية متخصصة_ عدد(3)_ 2008/11/10م_ ص(162،163)_ www.folkculturebh.org

وفي السهرة تلبس الثياب اللامعة والمشغولة بالتركيب والتطريز بينما ترتدي العروس الثوب باللون الأحمر المصنوع من الحرير أو الشيفون والمشغول باللون الذهبي أو المرصع بالخرز(لمراسم الجرتق) بينما في حالة الحزن والحداد تلبس الأبيض دون زينة. وساعد تباين المهن وأختلاف ظروف العمل على ظهور العديد من التصاميم المختلفة، فظهرت أزياء خاصة بالممرضات وكذلك المعلمات والطالبات، تشبه كثيراً أزياء هذه الفئات في بلاد المستعمر. وقد كان للتعليم أثر مباشر في إنحسار القرباب والفوطة خاصة بين شريحة المتعلمات. كما ساهم إختلاط بعض النساء بنساء الجاليات الأجنبية في تغيير خامة الزي الخارجي(الثوب) فدخلت الخامات الصناعية المستوردة من إنجلترا كالتوتال بديلاً لثوب الزراق والدمور[1]. وقد زاد إهتمام المرأة السودانية في القرن التاسع عشر بأدوات الزينة والحلي، كالقلائد والأقراط، والسلاسل، ولبست النساء في وسط البلاد الأحجبة المجلدة في أعناقهن والتي تشتمل على آيات من القران الكريم للحفظ من المكاره، وهي متممة لزينة المرأة، وكانت تلبسها للأطفال لدفع السحر، ولبسها أيضا الرجال لذات الغرض، وأحياناً للوقاية من مفعول السلاح. وعرف في وقت لاحق النساء والرجال معاً الشلوخ للتجميل والتمييز والتي تتم بالفصادة على الخدين أو الزراعيين أو على الكتفين أو البطن وكانت تختلف مواضعها وأشكالها بحسب القبيلة[2].

ثانياً: الأزياء الرجالية:

كانت الأزياء الرجالية القديمة في صورتها الأولى مكونة من قطعة واحدة تعرف بالإزار وهي شبيهة بالمجول تلبس لتغطية الجزء الأسفل وحتى الركبتين، كما لبس الرجال قطعة قماش مستطيلة تلف حول الجسم وتربط على الكتف وهي شبيهه باللاووه عند جنوب السودان والذي لبسه الرجال والنساء أنظر شكل(32) ولبس الرجال أيضاً الثوب أنظر شكل(33) كما لبسوا السروال وتحزموا بشال عريض في الوسط يغطي الأكتاف أنظر شكل(34) وأحياناً يلبس فوق السروال لتغطية منطقة الوسط فقط أنظر شكل(35) وفي أحيانٍ أخرى يلف في الوسط لينتهي عند الكتف باليد

---

[1]/ زينب عبد الله_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(65،66).

[2]/ بشير كوكو حميده_ في الخلفية الإجتماعية للمرأة السودانية_ مجلة الثقافة السودانية_ مطبعة التمدن المحدودة_ ع(15)_ الخرطوم_ أغسطس1980م_ ص(101،102).

اليمنى. وهذه الطرق الثلاثة نجدها أكثر شيوعاً في منطقة شرق السودان وكانت الخامات القطنية هي المستخدمة مثل الدمور والدبلان. ويُلاحظ من ذلك الوصف السابق أن الأزياء الرجالية كانت بسيطة من حيث الشكل والخامة وحتى بعد تطورها وما حدث لها من تغيير حيث تميز الرجل السوداني بإرتداء العراقي وهو زي داخلي يلبس تحت القميص ويختلف عنه كونه أقصر طولاً منه وله أكمام عريضة متوسطة الطول وفي شرق السودان تتميز أكمامه بالضيق أنظر شكل(36). وفي الفترة المهدية لبس مجاهدي الأنصار قميص يختلف عن العراقي كونه ضيق من أعلى(الأكمام والصدر) مرقع ذي نمط وطراز واحد من الأمام والخلف وهو رمز للتقشف والزهد ويقال أن اللمسات الجمالية هي من إضافات نساء الأنصار(أنصار المهدي) حيث زركشن أسفل الزي والأكمام بخيوط الصوف والقماش الملون[1]. أنظر شكل(37) وبتأثير دخول الإسلام والعرب السودان تغيرت الأزياء الرجالية حيث إنتشرت أنواع من الأزياء لم تكن معروفة وتطورت أخرى بحسب التقاليد الملبسية السائدة، وأضاف الرجال إلى العراقي والسروال القميص وحزام عريض في الوسط كزي أساسي ثم العباءة والقفطان كزي خارجي أنظر شكل(38). أما القميص فتنوعت أشكاله ومسمياته، مثل(الجلابية البلدية والأفرنجيه والتي تختلف عن السابقة بإضافة(لياقة مقواة في الرقبة وذات أكمام أضيق وهي أقل عرضاً من الجلابية البلدية أنظر شكل(39) وهي الأكثر إنتشاراً في شرق السودان ويلبس من تحتها سروال له شكل خاص فضفاض وواسع يعرف(بالبوجة) و(السربادوب)[2]. وإنقسمت الجلابية إلى نوعين نوع بزرائر وأخر من دونها، وتعرف الأخيرة بالجلابية الأنصارية بأنواعها(حربة) وبدون(حربة)، والكردفانيه أو التجارية، أو المقفولة وهى إتجاه واحد عكس الأنصارية التي تلبس بإتجاهين، كذلك إرتبطت الجلابية الأنصارية بمسميات بعض القبائل(البقارة/الرزيقات) على وجه الخصوص مع إختلاف خفيف في تصميم الجلابية(الرزيقيه) والتي تكون بدون جيوب أمامية. أما الجلابية ذات الزرائر فنجدها نوعان زرائر داخلية وأخرى خارجية ويسمى العمود الذي توضع فيه الزرائر(كرشليق)، وهي كلمة تركية تعني شريط فتحة

---

[1]/ جريزلدا الطيب_ أداء المرأة السودانية في صناعة الأزياء السودانية_ مرجع سابق_ ص(2988)
https://goo.gl/YFFW12

[2]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البجا_ مرجع سابق_ ص(57).

الزرائر ولبست هذه الجلابية في كل السودان وهى غير مرتبطة بطائفة معينة وإنما تعبر عن عموم أهل السودان[1] أنظر شكل(40). وقد لاحظ الباحث من خلال البحث تأثر الأزياء الرجالية في نهاية القرن التاسع عشر بمزيج من الثقافات الوافدة حيث ظهر ذلك في العباءة التي كان يلبسها عمداء وشيوخ القبائل من فوق الجلابية وهي عباءة مفتوحة من الأمام ذات نقوش على الصدر وكفة الأيدي قريبة الشبه بالتي تزين أزياء الباشوات في تلك الفترة. وكان هذا الزي خاص بالسلاطين والمشايخ في كل أنحاء السودان حتى الجنوب في إشارة واضحة للأثر الثقافي في الزي الوطني أنظر شكل(41). وكان لدخول المستعمر السودان أثره في تغيير شكل وخامة الزي الرجالي نسبة لتأثر بعض السودانيين وخاصة في المدن الكبيرة بالزى الأوروبي. إلى جانب الأزياء المحددة التي فرضها الإنجليز لدور العمل والتعليم حيث أستبدلت الجلابية بالقميص الإفرنجي القصير وأستبدل السروال بالبنطلون الطويل والقصير(short) كذلك لبس البعض البذلة "الجاكيت والصديري" بجانب الكرافتة حول العنق. أما من حيث الخامة فقد أستخدمت الخامات المستوردة من إنجلترا كالقطن والصوف[2] أنظر شكل(42). ويرى الباحث أنه بالرغم من تعدد القبائل وتباين الثقافات في السودان إلا أن الجلابية البلدية أصبحت من الأزياء المحببة والأكثر شيوعاً وتميز بها الرجل السوداني بمختلف إنتماءاته الفكرية والثقافية وهي جلابية بيضاء أضيفتً إليها النقوش الملونة والزخارف الدقيقة في جميع الإتجاهات مما أكسبها أبعاداً جمالية أخرى أنظر شكل(43) ولبست أيضاً الجلابية البيضاء مع العباءة الملونة بخامات حديثة ناعمة أنظر شكل(44). وخلاصة ذلك نجد أن الجلابية السودانية وجدت كثير من الإهتمام من قبل الأفراد والجماعات وصممت متأثرة بالمناخ السوداني والذي يتدرج من الصحراوي شمالاً إلى الاستوائي جنوباً، كما صممت أيضاً لتعبر عن النواحي الدينية والمهنية والجمالية وعليه نجدها أخذت العديد من الأشكال والمسميات منها:

أ. الجلابية الختمية:

وهي ذات الجلابية الإفرنجية وسميت كذلك لكونها إرتبطت بطائفة الختمية وهي تشبه الخليجية ويرجع ذلك إلى مؤسس جماعة الختمية الذي يزعم أنه أصلاً من أهل مكة المكرمة، وقد

---

[1]/ الجلابية السودانية_ موقع الفحل_ https://goo.gl/KRKaE3

[2]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان قبيلة المسيرية_ مرجع سابق_ ص(63).

نشر أفكاره الإصلاحية في السودان(وتختلف الجلابية (الختمية) عن البلدية بإضافة لياقة صغيرة تعرف ب"الكولة" ولها فتحة أمامية تثبت عليها الزرائر وذات أكمام طويلة ضيقة)[1].

ب. الجلابية الأنصارية:

تتسم بالقصر ومصممة بحيث يمكن أن تلبس في الإتجاهين وهى أكثر إنتشاراً في شرق السودان وفي المناطق التي يوجد بها الأنصار، ومما أستحدث مؤخراً هو أن تكون الجلابية الأنصارية الحربة ذات إتجاه واحد تحمل كل صفات الجلابية الأنصارية من إتساع وشكل الحربة في الأمام والخلف مع ملاحظة أنها تلبس من الجهة الأمامية فقط. كما أن هناك نوع ظهر منذ وقت ليس بالقريب، إلا أنه لم يصبح ملحوظاً إلاّ في الآونة الأخيرة وهي(جلابية) تشبه التقليدية تختلف عنها كونها قصيرة من حيث الطول وتنسب إلى جماعة أنصار السنة المحمدية.

ج. العلى الله:

وهي شبيهة بالجلابية الأنصارية بيضاء اللون قصيرة تحت الركبة وأستحدثت فيها الألوان والخامات المستوردة كما إزدادت طولاً إلى منتصف الساق وأصبح الكم يصل حتى منتصف الساعد وتصاحبها إكسسوارات، كالعصا القصيرة التي عليها شعار حزب الأمة، ويعتبر المدلول الأساسي في تصميم جلابية العلى الله أن الأعمدة التي في الظهر مع اليدين تكتب أسم الجلالة(الله)[2]

د. الصوفية:

وتعتبر من أشهر أنواع الجلاليب السودانية ولها أيضاً إرتباطات بأفكار دينية تتمثل في الزهد. وهي تتميز بالرقع المتعددة الألوان والتي تغطيها من الأمام والخلف، كما أنها وإن كانت من اللباس السوداني القومي إلاً أنها لصيقة بأفراد وجماعات(الصوفية) أنظر شكل(45). وحديثاً أصبحت تتميز باللون الأخضر كونه اللون الغالب عند الصوفية يضاف إليه الأحمر في الأكمام والحربة والأرجل، وأحيانا اللون الأسود ومن ملحقاتها الطاقية أم قرينات والعمة والشال وعصا المهوقني أو المطعمة بالعاج وأسلاك الفضة والنحاس، والتي تعتبر الأقيم والأغلى ثمناً، ومؤخراً لاحظ الباحث إرتداء بعض الشيوخ الشباب لتصاميم حديثة مع إضافات ملونة للإحتفاظ بالطابع العام حيث لبسوها

---

[1]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البجا_ مرجع سابق_ ص(57).

[2]/ الجلابية السودانية مرجع سابق_ https://goo.gl/KRKaE3

بدرجات لم تكن معروفة في السابق، مثل التركواز والأحمر المائل للبني أنظر شكل (46). ويكتمل الزي الرجالي بلبس الطاقية والعمة والتي تجاوزت فكرة الزي المجردة إلى مرحلة أصبحت فيها رمزية وطنية عميقة مما جعلها جزءاً لا يتجزأ من الهويّة الثقافية السودانية.

الطاقية:

تعتبر الطاقية من أغطية الرأس الأكثر إنتشاراً في السودان وتلبس كإكسسوار مكمل للزي الرجالي وإلى جانب كونها زينة، وإضافة إلى ذلك قد كان الغرض الأساسي من إرتدائها حماية الرأس من حرارة الشمس والهواء والغبار إلى جانب إستخدامها كزينة وللطاقية العادية أشكال متعددة، منها(المستديرة قبابية الشكل من أعلى وكذلك الشكل المخروطي والتي أشتهر بها أنصار المهدي، ثم الشكل الأسطواني الذي يصاحبه قرص مستدير في أعلاه)[1]. وقد عُرف السودانيون بارتداء(الطواقي) على رؤوسهم في معظم أنحاء السودان، كما أخذت الطاقية أشكالاً مميزه إختلفت في ألوانها وتطريزها ودلالاتها. حيث لبست الطاقية في الغرب والشمال والوسط والشرق، وفي الجنوب نجدها إتخذت أشكالاً متميزة حيث صنعت من السعف وأرتبطت الطاقية المصنوعة من القماش في السودان بالإتجاهات والطوائف الدينية مثل طاقية الأنصار والتي تتميز بإرتفاعها من الوسط إلى أعلى بينما نجدها عادية عند الختمية بخلاف الطرق الصوفية أصحاب الطواقي الخضراء الطاقية(أم قرينات) فكانت خاصة بالملوك في عصور العبدلاب والسلطنة الزرقاء.

العُمامة:

العُمامة أو العِمَّة كما ينطقها السودانيين هي غطاء للرأس عبارة عن قطعة مستطيلة من القماش تختلف في طولها بحسب شكلها وطريقة لبسها[2] وتصنع من القطن أو الحرير ويتراوح طولها بين 4و5 ياردات وعرضها حوالي الياردة ويتم لفها حول الرأس فوق الطاقية وأحياناً تلف بدونها [3]. وتعتبر العمامة من مكملات الزينة بالنسبة إلى الرجل السوداني، خصوصاً لمن يسكن في الشمال والذين لا يستغنون عن هذه العمامة في المناسبات المهمة، ويحرص الرجال أشد الحرص

---

[1]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(90).

[2]/ نفس المرجع السابق_ ص(88).

[3]/ زينب عبد الله_ الزي والزينة عند قبائل البجا_ مرجع سابق_ ص(74).

على إرتدائها كمكمل لزينتهم عند الأعراس والمناسبات المهمة في السودان، ولإضافة مزيد من الهيبة والوقار على مرتديها وتعد العمامة السودانية من أهم ما يميز الزى السوداني الرسمي، ولا تكتمل فخامة الزي بدونها. وعموماً تظل العمامة بجانب الجلابيه البيضاء رمز شعبي سوداني متوارث لا يمكن الإستغناء عنه ونمط ثقافي يميز السودانيون عن غيرهم.

المركوب:

المركوب هو الأسم المحلي في السودان للحذاء، درج أهل السودان لبسه منذ عشرات السنين ويصنع غالباً من جلود الحيوانات(جلد الأبقار، الضأن والغنم، النمر، وجلد الأصلة،...) وهو يعتبر رمز لعلو المكانة الإجتماعية والوجاهة. وهو من الملحقات الأساسية عند لبس الجلابية السودانية بالإضافة إلي الملفحة والعمة والصديري(بالنسبة لأهل شرق السودان والبطانة وجزء من الوسط والوسط الشرقي)، وتتنوع "المراكيب"، منها مركوب(الفاشر) و(الجنينه) و(الجزيرة أبا)، الذي يرجع إلى فترة الثورة المهدية، وهو صنع في منطقة الجزيرة أبا وسط السودان، ويمتاز بأن كل قطعة منه تصلح لأن تلبس في كلا القدمين دون أن يكون هنالك فرق في القدم اليمنى أو اليسرى. ويرتدي معظم أهل السودان المركوب لا سيما في الأعياد لإرتباطه بالزى القومي السوداني وهو مصمم بمختلف المقاسات بحيث ينتعله الرجال والشباب والأطفال. وكان الأطفال والصبية في السابق بحسب العادات القديمة عراة بخلاف الكبار والذين كانت لهم ملابس خاصة بهم. وبعد قيام المؤسسات التعليمية فرضت الأزياء الخاصة عليهم، فكان القميص الأفرنجي والبنطلون من نصيب الصبية كبار السن نسبياً، أما الأطفال الصغار فيرتدون القميص والبنطلون القصير(الشورت) وهو يعرف محليا(بالرداء) أما الصبية في القرى فيلبسون الملابس القومية البسيطة كالعراقي والسروال والجلابية [1]. ويستفاد مما سبق في هذا المبحث أن هنالك أسباب عديدة دفعت الإنسان في السودان لإرتداء الملابس وتطويرها وهي تشمل التغطية والستر والحماية من تقلبات الجو وتأكيد الهوية بالنسبة للجماعات والمجتمعات القبلية وهذه الأخيرة نجد أن الأزياء فيها تمثل جزءاً أصيلاً من تراثها على الرغم من تطور المظهر الملبسي على مستوى العالم ظلت هذه القبائل على إختلاف تواجدها تحتفظ بأزيائها المتوارثة عبر التاريخ وتسعى لتطويرها وتضيف إليها مكملات الأناقة

[1]/ زينب عبد الله محمد صالح_ الزي والزينة عند قبائل البقارة بالسودان(قبيلة المسيرية)_ مرجع سابق_ ص(64).

والزينة. والمتأمل للأزياء السودانية منذ تاريخ نشأتها بما طرأ عليها من تطور وما أستجد فيها من تغيير منذ قديم الزمان وإلى القرن الواحد والعشرين يلاحظ أن الهوية الثقافية للأزياء السودانية لم تكن وليدة لحظة تاريخية معينة، وإنما تشكلت ببطء في ظل الظروف التاريخية السياسية والثقافية التي مرت بها البلاد. وإن الأزياء السودانية المعاصرة ما هي إلا تطوير وتحديث لذات الأزياء القديمة ولكن بصورة معاصرة وتحمل مسميات ولغة العصر الحالي من ناحية الخامة وطريقة التصميم والتفصيل. فمثلاً الثوب السوداني الحالي كما ذكر سابقاً ما هو إلا إمتداد لزي المجول والقرباب القديم، وهذا بعكس المقولات المتداولة والتي تنسب الثوب السوداني لموريتانيا، أو الصومال، أو غيرها من البلدان الأفريقية. بينما تأثرت الأزياء الرجالية بالهجرة العربية الآتية من الشمال والشرق والغرب منذ عهد سلطنة الفونج في أوائل القرن السادس عشر وحتى بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أنتشر(السروال) و(العرّاقي) و(الطاقية) والعمامة والجلابية والتي أصبحت تمثل الزي القومي السوداني، وصارت بمرور الزمن الزي الأساسي للرجل في الشمال والوسط والغرب والشرق وبدرجة أقل في الجنوب. وأن الثوب النسائي والجلابية الرجالية مع العمة من الرموز المعبرة عن الهوية الثقافية السودانية بكل أبعادها ويمثلان تراثاً قومياً لم يندثر بالرغم من الثورة الصناعية التي شهدها العالم منذ بداية القرن العشرين والتداخل والهيمنة والإستلاب الثقافي عند فئة قليلة من المجموعات الثقافية، كما شهدا تطوراً ملحوظاً من حيث التصميم والخامة ليظلا الزي المعبر عن الهوية الثقافية السودانية. في هذا الفصل قدمنا بعض الإشارات العامة لما تميزت به الأزياء عبر التاريخ، وتتبع تاريخ الأزياء منذ نشأتها يقودنا إلي ضرورة التفكير فيها كوسيلة حضارية وإنسانية في المقام الأول ومن ثم الوقوف على القيم الثقافية والدلالية التي تنتجها. فلأزياء ظاهرة ثقافية مركبة ومعقدة حيث أنها تستند في تكوينها على السلوك والأفكار السائدة في كل فترة زمنية على حدا، ولا تعد الأزياء مجرد أغطية نفعية أو جمالية وحسب؛ وإنما هي رموز لمعان وقيم ضمنية. وأن توثيق الأزياء تاريخياً يقتضي دراستها بكل مالها من خصائص ومسميات، وتحليل محتواها الفني من نسيج ولون وزخرفة وتطريز ومكملات للزينة والحلي وحتى طرق إرتدائها؛ فهي تأخذ أشكالاً مختلفة بإنتهاجها نمطاً فنياً مميزاً في كل عصر.